الفصل السابع

حادثة فاشودة

وجهاد الفقيد سنة ١٨٩٨

obeikandl.com

استهل الفقيد عام ١٨٩٨ وقد استرد صحته، وكله أمل ونشاط في الجهاد، وكان جهاده سنة ١٨٩٧ قد آتى ثمره، إذ تحركت في النفس فكرة الوطنية بتأثير دعوته الصادقة ومقالاته وكلماته وخطبه ورحلاته ورسائله في الدفاع عن القضية المصرية.

خطبته في حديقة الأزبكية

(يناير سنة ١٨٩٨)

بدا أثر هذه الدعوة أوائل سنة ١٨٩٨، غذ اتفق الشباب المثقف من طلبة المدارس العليا على إقامة حفلة وطنية كبرى كان المترجم خطيبها ورئيسها، واختاروا لها حديقة الأزبكية بالمطعم الذي كان مشهورًا باسم (سانتي)، وحددوا لها يوم ٨ يناير عيد جلوس الخديو عباس الثاني، وألفوا لجنة لتنظيم هذه الحفلة، وقد أقيمت الحفلة، فكانت آية في الجلال والبهاء، وبعد أن تناول المدعوون الطعام وقف أحد أعضاء لجنة الاحتفال وهو أحمد أفندي حافظ عوض (بك) ودعا للخديو ثم أثنى على الفقيد قائلا: أشكر ضيفنا الكريم الذي رأيناه في شبابه الغض كثير الأعمال، كبير الآمال ونرى الليلة في وجوده بيننا شخص الوطنية الحقة، ومثال الإخلاص لمصرنا العزيزة" (١)

وما انتهى من كلامه حتى وقف الفقيد موقف الخطابة، فقوبل من جميع الحاضرين بعاصفة من التصفيق، فشكرهم على إحساساتهم، ثم ألقى خطبة مستفيضة من أعظم خطبه الوطنية، افتتحها قائلاً:

" إخواني الأعزاء:

"لقد شكرني حضرة زميلكم الفاضل على حضوري بينكم الليلة وإجابتي دعوة الذين تفضلوا بها على هذه الحفلة الشائقة، على أن الشكر يجب أ، يقدم مني إليكم لأني أرى في حضوري بينكم شرفا عظيما لي، وأقدر عنايتكم بدعوتي حق قدرها ولطالما تمنيت أن أقضي بضع ساعات مع نخبة المدارس المصرية، وأناجي أولئك الذين خرجت من صفوفهم، وما نسيت عهودهم وأتحدث معكم يا مستقبل مصر ورجاءها المنتظر في ذلك الواجب العظيم الذي يجب علينا جميعًا أن نقوم به حق القيام، وأعني به خدمة الوطن العزيز".

---

(١) المؤيد عدد ٩ يناير سنة ١٨٩٨.

تمجيد الوطنية

وبعد أن تكلم عن الخديو ونوه بتأييده ميول الشعب، عرج بالوطنية وأشاد بها قائلاً:

"إن الوطنية هي اشرف الروابط للأفراد، والأساس المتين الذي تبنى عليه الدول القوية والممالك الشامخة، وكل ما ترونه في أوروبا من آثار العمران والمدنية، ما هو إلا ثمار الوطنية أصبح اليوم الوطن المصري ينتظر منكم ومن بقية أبنائه عدلاً وإنصافًا، أصبحت مصر تؤمل منكم أن ترفعوها على منصة الحرية والاستقلال، وأن تردوا إليها حقوقا وهبها إياها الخالق عز وجل، ولا ريب أنكم معشر المتعلمين، معشر النابغين في المعارف والآداب، أول من يسأل عن خدمة مصر وتأييد مبدأ الوطنية الحقيقية، فإنكم قرأتم في التاريخ الأمثال الكثيرة للوطنية، وعرفتم سير ناس عديدين ماتوا محبة لبلادهم وإخلاصًا لأوطانهم، فحيوا بموتهم، وأدركتم أن الحياة سريعة الزوال، وأن لا شرف لها بغير الوطنية والعمل لإعلاء شأن الوطن وبنيه".

الوطنية والمال

إلى أن قال مستحثًا كل متعلم مما يكن صغيرًا على القيام بواجبه الوطني: "إنكم إذا خرجتم من المدارس ودخلتم صفوف الرجال وشرع أحدكم في عمل من الأعمال سمع لا محالة عن قوم غيتهم تثبيط الهمم وإقعاد العزائم: من أنت حتى تعمل هذا العمل؟ وإذا كان الأغنياء والكبراء لم يقدموا عليه، فكيف تقدم أنت عليه؟ وهو قول فاسد لأن الوطنية لا تمييز فيها بين الصغير والكبير، والغني والفقير، بل كلنا سواء أمام مصر، وكل واحد منا مسئول عن مصائبها مطالب بخدمتها وإعلاء قدرها".

وبعد أن ضرب الأمثلة بكبار الوطنيين الذين خرجوا من صفوف الفقراء، قال: "قد يكون الرجل الصادق الوطنية فقيرًا في المال، ولكنه يعيش ويبقى في التاريخ من أكبر سراة الوطنية، ودعا في خطبته على نشر العلوم والمعارف فإنها الوسيلة على التمسك بالحقوق والكرامة.

الدعوة إلى الحياة الحرة

ودعا الشباب على الحياة الحرة والإعراض عن المناصب الحكومية، قال:

"لاشك أنه لا يمكنكم القيام بإنارة الأمة وإرشادها إلا إذا كنتم في الحياة الحرة مجاهدين بأنفسكم في سبيل الحياة، لا عمالا في إدارة أو ديوان تتقدون في آخر الشهر مرتبًا معلومًا يقتل فيكم عواطف الاستقلال ويحبس في نفوسكم الحرية الشخصية والميل إلى عظائم الأعمال".

ثم نوه بالحياة الحرة في أوروبا وما أنتجته من جلائل الأعمال، وختم خطبته بقوله:

"إن أثمن نصيحة تلقيتها في صغير ،القيها اليوم على أبناء بلادي المحبوبة وأختم بها كلامي معكم الليلة هي: العمل الاتحاد على خدمة الوطن العزيز".

وقد قوبلت خطبة المترجم بتصفيق الإعجاب والحماسة والاستحسان، وكان له الأثر الكبير في نفوس الشباب.

الرد على الحملات الاحتلالية

كانت دعوة مصطفى كامل تقضّ مضاجع احتلال وصنائعه، لأن انتشار الدعوة الوطنية تزلزل مركز الاحتلال القائم على الغصب والعدوان، فكانوا يعملون على إحباط دعوته بالصحف الموالية في مصر، وبالحملات الاحتلالية في الصحف الأوروبية، وقد تردد في بعضها اتهامه بأنه يدعو إلى ثورة، فكتبت أحدى الصحف الفرنسية وهي جريدة (لوريان) مقالا بهذا المعنى.

فرد عليها الفقيد بكتاب في ٣ فبراير سنة ١٨٩٨، بدأ بقوله:

"قرأت في أحد الأعداد الأخيرة في جريدتكم حملة على الوطنيين المصريين، كتبت بتحيز للاحتلال الإنجليزي وأشياعه، وليست عليها مسحة من الحق، ولما كنت أعتقد أن مبادئكم حرة شريفة، وأنكم تستظلون براية الحرية والإخاء والمساواة، رأيت أن أرسل إليكم كتابي هذا خدمة للحقيقة راجيًا نشره في المكان الذي نشرتم فيه مقالتكم التي نسبتم إلىّ فيها أمور أنا أبعد الناس عنها وكذلك أبناء وطني جميعًا".

ثم فند مقالة (لوريان) تفنيدًا مسهبًا في رده عليها. وقد نشرته الجريدة المذكورة وعلقت عليه بكلمة جاء فيها:

" إننا نحب المصريين كثيرًا ونميل إلى خلاصهم وعودتهم على التحلي بتاج الملك وجواهر العلم، ولكن لكي نصل على تحقيق هذا الحل يجب أن يساعدونا من جانبهم بالتؤدة والسكينة،و إننا لا ننكر أن أعمال "مصطفى كامل" كلها رزينة حكيمة لا تقل عن جمال أي عظيم ذكره

التاريخ في سبيل تحرير بلاده، وإن له في بلاده عصبية تذكر بالإعجاب والإعظام، وإنه من أبناء فرنسا في العلم، ولكننا ننكر على غيره الشدة في القول والحماقة في الرأي".

ونشرت جريدة (لاكوريبري) الإيطالية حديثًا للمترجم بعددها الصادر في ١٥ مارس سنة ١٨٩٨ في شرح القضية المصرية والدفاع عنها.

ظهور كتابه عن المسألة الشرقية

وفي إبريل من تلك السنة ظهر كتابه عن (المسألة الشرقية)، وهو كتاب قيم يشرح فيه تطورات المسألة الشرقية وموقف الدول الأوروبية، وبخاصة إنجلترا حيالها، وأفاض في تعريف المسألة الشرقية وبيان حوادثها في القرن الثامن عشر ثم التاسع عشر، مستطردا إلى ذكر استقلال اليونان ثم مسألة سورية بين محمد علي وتركيا، وحرب القرم، ومؤتمر برلين، ثم شرح المسألة المصرية ثم المسائل البلغارية واليونانية، ويرمي الكتاب على تحبيب الاستقلال على الأمة وإحياء الشعور الوطني في نفوس قرائه.

جهاده في أوروبا

(يونيه- سبتمبر سنة ١٨٩٨)

سافر مصطفى كامل من الإسكندرية يوم الجمعة ٢٤ الجمعة ٢٤ يونيه سنة ١٨٩٨ ليواصل جهاده في أوروبا [١]، وما أن وصل إلى باريس حتى وقف على خطبة ألقاها اللورد سالسبري رئيس الوزارة الإنجليزية بسبب إخفاق سياسة وزارته بالصين قال فيها تعريضًا بالهند ومصر" "إن إنجلترا لم تعمل السيف في الصين كما أعملته في الهند ومصر فانبرى للورد سالسبري ورد عليه بالكتاب الآتي تعريبه، وقد نشره بالفرنسية في جريدة (الانترانسيجان) ونشرته عدة صحف باريسية.

---

(١) المؤيد عدد ٢٣ يونيه سنة ١٨٩٨.

"باريس في ٤ يوليه سنة ١٨٩٨:

"جناب اللورد سالسبري

"اطلعت في الجرائد على نص خطبة سياسية زعم جنابكم فيها أن إنجلترا قد فتحت مصر بالسيف، والوجدان الأبيّ يتجافى عن زعم كهذا، والوطنيون المصريون يقيمون الحجة عليه بأشد ما لديهم من الحزم والعزم، فإن بلادكم لم تفتح بلادنا، وإني أستشهد الدنيا بأسرها على هذا الادعاء، إن انجلترا لم تكن في حرب مع مصر في عام ١٨٨٢، بل هي تدخلت في حوادثها تدخلاً وديًا لتأييد عرش الخديوية فهل يليق بها وهي على ما تدعي أمة متمدنة أن تقوم اليوم بعد أن حلفت حين حلولها في مصر بأنها تتركها تحكم نفسها بنفسها، فتصرح للعالم بالرغم من الشرف والوعد الصريح أنها قد فتحت بلادنا بحد السيف؟ وإلا كان معنى هذه الكلمات "شرف وتمدن وإنسانية" في عرفك يا جناب اللورد استعباد الأمم الواثقة بالتمدن؟ ألست القائل في عام ١٨٨٦: " لنحترم وعودنا المقدسة ولنجلو عن مصر"؟ ألسف القائل في شهر نوفمبر من سنة ١٨٨٦ للمسيو وادنجتون: إن بني قومكم يكونون في ضلال مبين إذا اعتقدوا أننا نريد أن نمكث في مصر إلى ما شاء الله، فنحن لا نبحث إلا عن الوسائل التي نخرج بها من مصر بشرف وكرامة، أو لستم أنتم الذين قلتم في البرلمان يوم ١٠ يونيه سنة ١٨٨٧ هذه العبارة: "لا يسوغ لنا أن نأخذ على عاتقنا حماية مصر، حتى على فرض أن عملا كهذا ينطق على الشرائع الدولية ومصلح بلادنا"؟ أو لستم أنتم الذين قلتم وكررتم القول في شهر أغسطس سنة ١٨٩٨: "إن التصريح بإقامة انجلترا في مصر دليل على قلة احترام لعهود المقدسة التي ارتبطت بها حكومة جلالة الملكة والتي علينا الإذعان لها"؟

"فإذا كنتم يا جناب اللورد قد نسيتم أو ازدريتم هذه التصريحات الشريفة فإنه ينبغي لكم أن تذكروا بأنكم قلتم في إحدى خطبكم الأخيرة: إن انحطاط الأمم العظيمة قد كان سببه على الدوام طمعها وشرهها".

"ولا يغيبنّ عن البال أن مصر التي كانت في جميع عصور التاريخ سبب موت الأمم الطاغية، فإنها لا محالة ستكون كذلك في المستقبل، ولا يمكن أن تنجو انجلترا من هذا المصير إذا أصرت على احتلال بلادنا، لأنكم إذا كنتم تعتبرون أن إرادة انجلترا فوق إرادة أوروبا، فإنه لابد أن يأتي يوم تنتصر فيه الوطنية المصرية وحدها على انجلترا العظيمة القادرة، وربما هززتم كتفيكم يا حضرة اللورد حين قراءة هذا الكتاب، ولكن كل انجليزي يضع شرف بلاده فوق المصلحة الذاتية الحقيرة يخجل ويستحي بعد قراءته".

مصطفى كامل

وكتب الفقيد عدة مقالات في الصحف الأوروبية دفاعا عن قضية مصر، ونشر حديثًا في جريدة (الإكلير) الباريسية عن يوم ١١٢ يوليه وهو ذكرى ضرب الإسكندرية.

ثم ألقى بباريس خطبة سياسية في سبتمبر سنة ١٨٩٨، وعاد على مصر فوصلها يوم ١٨ سبتمبر، وله في المؤيد مقالات وطنية قيمة نشرها في سبتمبر وأكتوبر من تلك السنة.

حادثة فاشودة وتأثيرها في الحركة الوطنية

وقعت في تلك السنة حادثة خطيرة كان لها وقع شديد في النفوس واثر بالغ في مصير المسألة المصرية؛ ونعي بها حادثة (فاشودة) التي اهتزت لها أوروبا بأسرها وكادت تؤدي على نشوب الحرب من أجلها بين فرنسا وانجلترا.

كان السودان المصري في عهد الخديو إسماعيل يصل جنوبا إلى خط الاستواء وشرقا على سواحل البحر الأحمر وخليج عدن، ووصلت حدوده الجنوبية والشرقية على المحيط الهندي، وحدوده الغربية إلى (واداي) غربي دارفور (انظر الخريطة ص ١٣١ وهي مقتبسة من كتابنا "عصر إسماعيل" جـ١ ص ١٣٤ طبعة سابقة).

فلما شبت الثورة المهدية في السودان، ثم أكرهت إنجلترا الحكومة المصرية على إخلائه سنة ١٨٨٤، اعتبرته إنجلترا نهبًا مقسمًا بينها وبين الدول الاستعمارية فاحتلت أوغندة ومنطقة البحيرات الاستوائية، والجزء الجنوبي من مديرية خط الاستواء المصرية، ومحافظتي زيلع وبربره، وأخذت إيطاليا مصوع والاريترية ورأس جردفون (جرفوي)، وفرنسا تاجورة وجيبوتي، والحبشة بلاد هرر وبني شنقول.

وفي غضون ذلك النهب الاستعماري اشتد التنافس بين انجلترا وفرنسا على اقتسام مناطق النفوذ بينهما، فاعتزمت فرنسا تجريد حملة لاحتلال مركز هام في أعالي النيل وكانت ترمي بهذه الحملة على صد التيار الإنجليزي في باطن أفريقية، ثم على فتح باب للمسألة المصرية برمتها وإجبار إنجلترا على تنفيذ عهودها في الجلاء عن مصر، ومن هنا جاءت أهمية حملة مارشان على فاشودة.

ترددت فرنسا طويلا في إنفاذ هذه الحملة، فقد فكرت فيها في أواخر سنة ١٨٩٣ وعهدت بها أولا إلى القومندان (مونتي)، ولكنها ما لبثت أن عدلت عنها، ثم تجددت الكفرة في أواخر سنة ١٨٩٥، ومن المؤلم أن الوزارات المصرية كانت خاضعة لأوامر السياسة الانجليزية، فانجلترا هي التي أوعزت إليها بإخلاء السودان ففعلت، ثم أوعزت إليها باسترجاعه فأعدت جيشها لتحقيق هذه الغاية، على حين لم تكن مصر في حاجة إلى تجريد جيشها لاسترجاع السودان لو لم تقرر

إخلاءه سنة ١٨٨٤، وهكذا كانت مصر ضحية السياسة الاستعمارية الانجليزية وضحية الوزارات التي تستسلم لها وتخضع لأوامرها.

عهدت فرنسا في سنة ١٨٩٦ إلى الكابتن (مارشان) بالزحف على فاشودة الواقعة على النيل واحتلالها، وقد اختارت هذه النقطة لأهميتها من الوجهة الحربية والجغرافية، فهي تعد مفتاح النيل الأعلى، إذ تقع على ملتقى الطرق المختلفة الواصلة من الخرطوم والحبشة إلى جنوبي السودان، وعلى مقربة من ملتقى روافد النيل، كنهر سوباط وبحر الغزال وبحر الزراف، ومن يملكها يضمن النفوذ في شمالي السودان وجهات خط الاستواء (انظر موقعها على الخريطة ص ١٣١).

صدع الكابتن (مارشان) بأمر حكومته، وسار على رأس كتيبة من الجند قاصدًا فاشودة، فقضى عامين في طريقه إليها يعاني المشاق والمتاعب المضنية في مجاهل إفريقية، حتى بلغها واحتلها في يوم ١٠ يوليه سنة ١٨٩٨، وكان احتلالها إيذانا بفتح باب المسالة المصرية.

أدركت إنجلترا غرض فرنسا من هذه الحملة، فبادرت على العمل لإجلائها، وهنا ظهرت (مؤقتًا) بمظهر المدافع عن مصر المؤيد لها، فاعترضت باسمها على هذه الحملة، واحتجت عليها باعتبارها أن فاشودة أرض مصرية، وسار إليها اللورد كتشنر سردار الجيش المصري وقتئذ على رأس قوة مؤلفة من ١٨٠٠ دندي مصري ومائة جندي بريطاني، فوصلها في سبتمبر سنة ١٨٩٨. وهناك التقى بالكابتن مارشان، واحتج على احتلاله بلداً مصريًا ورفعه العلم الفرنسي "على أملاك سمو الخديو"، وأبلغه أن هذا الاحتلال يعد انتهاكا لحقوق مصر، وأنه قد جاء ليرفع العلم المصري على فاشودة، وكان مارشان يعلم أن لا قبل له بمقاومة القوة المصرية التي جاءت لإجلائه عنها إذ لم يكن لديه سوى تسعة ضباط فرنسيين ومائة وعشرين جنديا من أهالي السنغال فلم يقاوم، ورفع المصريون عليها العلم المصري.

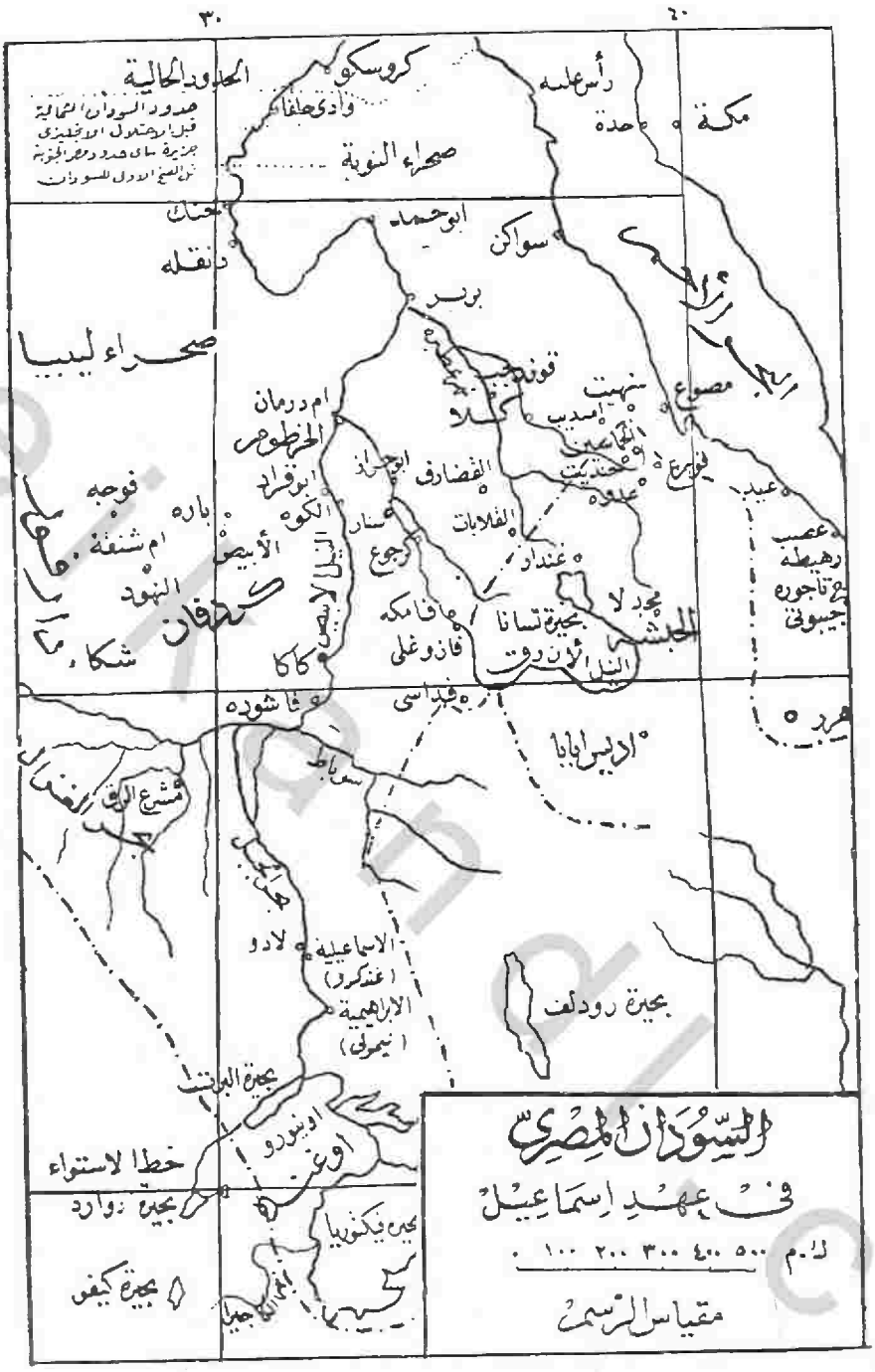
٣٠
٦٠
الحدود الحالية
حدود السودان الشمالية قبل ارتحلول الانجليزى جزيرة سناى حدود مصر الجنوبية قبل الغزو الاول للسودان
كروسكو
وادى حلفا
صحراء النوبة
رأس علمه
حدة
مكة
ابو حمد
سواكن
دنقله
صحراء ليبيا
بربر
مصوع
ام درمان
الخرطوم
ابو قرد
الكوه
فوجه
باره
ام شنقة
الأبيض
كردفان
النهود
شكا
كاكا
الفضارف
الجزاز
الفلابات
رجوع
غنداو
بحيرة تسانا
النيل الازرق
الحبشة
عصب
رهيطة
تاجوره
جيبوتى
ثاشوده
قندار
ادريس ابابا
بحيرة رودلف
لادو
الاسماعيلية
(عندكرو)
الابراهيمية
(نيمولى)
بحيرة البرت
اوغندا
خطا الاستواء
بحيرة دوارد
بحيرة كيفو
بحيرة بكنوبيا
الكنغو البلجيكى
السودان المصرى
فى عهد اسماعيل
ك.م ٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
مقياس الرسم

اشتدت الأزمة السياسية بين انجلترا وفرنسا على اثر هذه الحادثة، وكان الظن أن تتمسك فرنسا بموقفها، وتفتح باب المسالة المصرية، وتضطر انجلترا على الجلاء عن مصر، مقابل جلاء الفرنسيين عن فاشودة، وقد استيقن المصريون أن آمالهم ستتحقق، غذ كانوا يعتقدون أن فرنسا لا تقدم على هذا التحدي لانجلترا إلا وهي مصرة على المضي في سياستها إلى النهاية، وكاد الخلاف بين الدولتين يصل إلى امتشاق الحسام بينهما، فعظم بذلك شأن المسألة المصرية، وقويت آمال المصريين في الاستقلال، ولكن فرنسا تخاذلت وتراجعت آخر الأمر، وخشيت مغبة الحرب إذ لم تتقدم حليفتها روسيا لمعاونتها، فسلمت بوجهة نظر انجلترا، وأمرت مارشان بالجلاء عن فاشودة، وتم جلاؤه عنها يوم ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٨، فكان هذا التسليم أكبر صدمة سياسية أصابت الحركة الوطنية، لأنه دلت على أن فرنسا لا تنوي معارضة انجلترا في احتلال مصر والتصرف فيها كما تشاء، ودل على نية الإنجليز في دوام احتلالهم لمصر والسودان، فزلزل هذا الحادث أمل المصريين في الاستقلال.

ثبات مصطفى كامل في الجهاد

كان انسحاب مارشان من فاشودة انتصارًا كبيرًا للسياسة الإنجليزية، وإيذانًا بإصرارها على البقاء في مصر والسودان، وتجاهل عهودها في الجلاء، فنجح معظم رجالات مصر إلى الولاء البريطاني واكتساب رضاه، غذ رأوا في حادثة فاشودة برهانًا جليًا على رسوخ أقدامه في البلاد.

كتب مصطفى على أخيه على بك (وكان وقتئذ من ضباط حملة السودان) كتابًا قال فيه:

"... إن الأحوال السياسية سيئة للغاية بعد مسألة فاشودة، وأظهر بعض الكبراء الجبن وكادوا يخونون بلادًا أحسنت إليهم بما لا يحلم به غيرهم، ولكني ثابت على خطتي حتى الممات، لأن اعتقادي أن ثمر الدفاع وإن لم يجنه المدافع الأول أو الثاني فلسوف يجنيه مصري على مدى الأيام وأننا إذا لم نقتطف ثمر علمنا وجهادنا في حياتنا فإننا على الأقل نضع الحجر الأول لمن يبني بعدنا".

وكتبت مدام آدم كثيرًا عن حادثة فاشودة، ومنها قولها في مقالة لها في فبراير سنة ١٩٠٤، عن أغلاط السياسة الفرنسية.

"فاشودة إنها الضربة القاضية! لقد قلت في رسائلي قبلا إن غير واحد من ساسة فرنسا قد أفهم الخديو والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصالح مصر سريعًا وبصفة حاسمة وأبانوا لهم أن بعثة مرشان هي الحاملة لراية استقلال مصر فصاروا جميعًا يعتقدون أن تحرير وطنهم سيأتي من السودان، ولكن حادثة فاشودة قضت على آمال الوطنيين المصريين".

وقد كان لها كذلك تأثير كبير في موقف الخديو، إذ أخذ يذعن للأمر الواقع، ويتودد على الاحتلال، وكان أول مظهر لهذه السياسة الجديدة زيارته للندن سنة ١٩٠٠، وفي ذلك يقول مصطفى كامل في رسالته على مدام جولييت آدم في ٢ يونيه سنة ١٩٠٠: " أبعث إليك مع هذا بمقالة تفصح لك عن شعوري والشعور الأهلي نحو سياحة الخديو في لندن، تلك السياحة التي آلمتنا كثيرًا، وما ذلك وا أسفاه إلا نتيجة فاشودة".

والواقع أن حادثة فاشودة كانت فوزًا كبيرًا للاحتلال وصنائعه في مصر، وبعثت اليأس في نفوس الوطنيين، واعتقدوا أن لا منجاة لمصر من الاحتلال بعد أن أذعنت فرنسا للسياسة الإنجليزية في تلك الحادثة، وخمدت جذوة الوطنية في النفوس، ولكنها لم تخمد في نفس مصطفى كامل، بل ضاعف جهاده وكفاحه، بمقدار ما ازدادت بالعقبات والمصاعب في طريقه، وأخذ يفكر من ذلك الحين في إنشاء صحيفة يومية تغذي النفوس والعقول بمبادئ الوطنية والكرامة والأمل والجهاد.

وقد كان يتألم إذ يرى كبار المصريين وذوي الشخصيات البارزة منصرفين عن الجهاد، ويرى نفسه يكاد يكون وحيدًا في الميدان، لكنه مع ذلك ظل يثابر في جهاده بالرغم من العوامل المثبطة التي تكتنفه.

أرسل في هذا الصدد إلى صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد كتابًا من باريس بتاريخ ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٨ (نشرنا صورته بالزنكجراف ص ١٣٤) جاء فيه:

"وصلني خطابك الكريم المؤرخ ١٢ الجاري، وإنه لا يسعني إلا أن أشكر ودك الصادق النادر المثال في مصر، فهو تعزيتي عن هموم بلادي، وتسليتي على قعود بني وطني عن إجابة ندائي والاجتماع حول راية الوطن لإنقاذه وإسعاده.

"وإنك لمصيب في رأيك بشأن دعوة رجال القلم في برلين، وإنه ليحزنني حقًا أن أرى الفرص مناسبة لخدمة الوطن، ولا أجد غيرك في المصريين نصيرًا يساعدني على ذلك، فتجدني إن تكلمت أو دعوت أتكلم كئيبًا أسيفًا، وأدعو وأنا عارف بأنه ليس في مصر من يساعدني على القيام بالواجب وإكرام الضيف إن وافي. فقل لي بالله ما قيمتنا ونحن لا نضحي شيئًا لخدمة الوطن إذا قورن بيننا وبين الذين يضحون أنفسهم وأرواحهم لخدمة أوطانهم؟

"أخي. سأسافر على برلين بالرغم من شدة كدري من عدم وجود إرادة مشتركة بين من يريدون أو من يدّعون خدمة الوطن وعدم وجود خطة ثابتة يجري الكل عليها، وسأعمل كل ما في جهدي لخدمة البلاد، وما على إلا الامتثال لإرادة الخالق جلّ شأنه الذي كأنه أراد أن أكون الوحيد في خطتي، الفرد المطالب بالاستقلال".

وأرسل إليه من برلين في ٣ سبتمبر سنة ١٨٩٨ كتابًا (صورته بالزنكجراف ص ١٣٦) يقول فيه:

"وعلى أي حال فالمستقبل بيد الله يدبره كيف يشاء، وما علينا إلا العمل والمثابرة على المطالبة بحقوق بلادنا، فما ضاع حق لمطالب، وإني كلما زرت عواصم أوروبا ازددت اعتقادا بأن الأمر بيدنا، وأنه لو اتحد مائة منا لاهتزت الأرض قاطبة لصوتهم، فما بالك لو اتحدت كلمة الأمة المصرية كلها وأني لأحسن بكآبة.

(خطاب الفقيد إلى فريد بك في ٩ أغسطس سنة ١٨٩٨).

باريس في ١٩ أغسطس ١٨٩٨

أخي العزيز فريد بك حفظه الله

بعد التحية وتقبيل وجنتيك. وصلني خطابك الكريم المؤرخ ١٠ الجاري وإذ لا يسعني إلا أن أشكر وداد صادق الناد
على ما بعد فهو تعزيتي على هموم بعدي وسلبني على فقود

بني وطني عند إجابة نداءك والاجتماع حول راية الوطن لإنقاذه
وإسعاده

وأنتم لصيقون رأيكم بشأنه دعوة رجال القلم في برلين. وإني
لكثير جداً أن أرى الفرصة مناسبة لخدمة الوطن ولا أجد غيركم
والعربية نصيراً يساعدنا على ذلك. فتجدني إذا تكلمت أو دعوت
أتكلم كمصري إسبانيا وأدعو وأنا عارف بأن المسيو في مصر يساعدنا
على القيام بالواجب وإكرام الضيف الذي وافى. فحقق بالله عليكم
ما قيمتنا وغنه لا نفضي شيئاً لخدمة الوطن إذا قورن بنفوسنا وبنيه
الذين يضحونه أنفسهم وأرواحهم لخدمة أوطانهم.

أخي سألت فرانسا برلين بالرغم عن شدة كرهي منه عدم وجود
إرادة مشتركة بينه وبين بريطانيا أو من يعاونه خدمة الوطن وعدم
وجود خطة ثابتة يجري الكل عليها ويعمل كل ما في جهده
لخدمة البلاد. وما علة إلا الاستبداد
فلإرادة الحاكمة هي شأن الذي كان أراد الله أن يكون الوحيد في
خطة الفرد المطلق بالاستقلال.

وغاية رجائي منكم - إذا لم يسمع نداءنا ويخلص أوطاننا أن يحفظ
لي ولكم الصداقة وحبكم إلى آخر
ما بالخير أبي الخير؟ لم يرسل لي حرفاً واحداً مع أني كتبت
إليه

بلغ سلامي وتقبل أنت ألف ألف سلام من حبر
صديقه لك ومن أخيك الشاكر العاق للجميل
كامل

خطاب الفقيد إلى فريد بك ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨

برلين في ٤ سبتمبر ١٨٩٨

أخي الأعز حضرة

بعد التحية والتسليم والدعاء عن شوقه كما تعلم عظيم وصلني خطك الأخير بباريس وأنا على أهبة السفر إلى برلين فضلت تأجيل الرد إلى وصولي هذه العاصمة العلمية .....

وعسى أن يكون المستقبل بيدك كيف تشاء وساعدنا إلى العمل والمثابرة على المطالبة بحقوق بلادنا فما ضاع حق وراءه طالب

وإني كلما زرت عواصم أوروبا ازددت اعتقاداً بأن الأمر بيدنا وأنه لو اتحد هاتان الاثنتان الأرض قاطبة لصوتهم فما بالك لو اتحدت كلمة الأمة المصرية كلها . وإني لأحس بكآبة وحزن عظيمين لوجودي في هذه البلاد وحدك وتود القلم صامت مقابلتي وودته غيري فعسى الله أن يمدني بمساعدة وأجد من بني الوطن أنصاراً يجاهرونه معي علناً بأفكارهم وآمالهم وصالحك على بعزيز

أسافر بعد برلين لفيينا ومنها لبودابست وأبارح بودابست يوم السبت القادم مساءً الباخرة بغلية فأصل بمشيئة الرحمن يوم ٢٠ سبتمبر وأمل أني أكون عندك يوم الاثنين ٢٥ سبتمبر

وحزن عظيمين لوجودي في هذه البلاد وحدي وتعود القوم هنا على مقابلتي دون غيري فعسى الله أن يمدني بمساعدته، وأجد من بني الوطن أنصارًا يجاهرون معي علنًا بأفكارهم وآمالهم، وما ذلك على الله بعزيز".

خطبته بالقاهرة

(٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٨)

كان ختام جهاده عام ١٨٩٨ أن ألقى يوم ٢٣ ديسمبر خطبة وطنية بالتياترو الطلياني بالأزبكية، موضوعها، (واجبات المصريين نحو وطنهم العزيز) وكان الإقبال على سماعها عظيمًا، والزحام شديدًا، وظل يخطب نحو ساعة ونصف، وجاءت الخطبة بعد حادثة فاشودة، فحمل على اليأس حملة صادقة، واستثار في النفوس روح الأمل والواجب، وفي هذه الخطبة قال كلمته المأثورة " " لا معنى لحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة)، ويتبني لك من عباراته فيها مبلغ ألمه من روح النفعية والتردد والهزيمة التي كانت فاشية في المجتمع، وفي ذلك يقول:

"يجب علينا أن نجتمع كثيرًا، ونتدبر في الأمر طويلاً، فقد توالت الحوادث الجسام، وتعاقبت البلايا العظام، وأنذرت الأيام مصر بسوء العاقبة وظلمة المستقبل إذا دام المصريون رائدهم الشقاق والفراق، ومنتهى آمالهم قضاء الحياة على أي حال تعيسة كانت أو سعيدة" إلى أن قال:

"تنزلوا أيها المصريون إلى أعماق قلوبكم، واسألوا سرائركم، هل أنتم في شقاء أم هناء؟ وهل بالاستسلام وتسليم الأوطان تقابلون نعمة الله عليكم بمصر وهي جنة الأرض وأبدع البلدان؟ وهل يليق بكم وأنتم سلالة اشرف الأمم، أن ترضوا بهذا الهوان وتقبلوا هذه المذلة وأنتم صاغرون؟"

"تمر الحادثات المزعجات علينا، وتنفطر لها قلوبنا، وتحزن منها أشد الحزن أفئدتنا، ثم لا نجد لسانًا ينطق بما يختلج به الجنان، بل نرى سكوتًا في سكوت واستسلامًا في استسلام، فيزداد البلاء ويتضاعف الشقاء".

"ثم تكلم عن استسلام الوزراء والحكام والكبراء للاحتلال، وسكوتهم عن رفع العلم البريطاني في السودان بعد استرداده، قال:

"لقد بالغنا في الاستسلام وأبدعنا فيه كل إبداع، وما جنينا إلا الخيبة والفضيحة والعار فهذه بلاد السودان قد فتحتها مصر بأموالها وبدماء أبنائها الأعزاء، أي راية تخفق اليو عليها؟ وأي شرع يقام اليوم فيها؟ وأي حق يُعترف به للمصريين في نواحيها؟ ألم تقض سياسة الاستسلام بأن تجاهد جنود مصر الأبطال أجمل وأشرف جهاد وتبذلك حياتها رخيصة في سبيل استرداد السودان ثم تسلم إلى الدولة المحتلة هذه البلاد الزاهرة وهي من مصر الروح والفؤاد؟ فأي فضيحة بعد هذه الفضيحة وأي عار بعد هذا العار؟ أقام الإنجليز ال{ض وأقعدوها بسبب غردون وثأر غردون ونسفوا قبر المهدي نسفًا وأخرجوا رأسه بأشنع صفة وأقبح مثال وعقدوا المجامع وألقوا الخطب تحية وسلامًا على روح هذا الفقيد، ورفعوا رايات الفرح والنصر للأخذ بثأره، والمصريون ينظرون على هذه المناظر ويتساءلون: أليس لدماء من مات منا ثمن؟ أليس لرجالنا قيمة؟ أليس المصري في شريعة الله إنسانًا ككل إنسان؟ أتموت منا الجنود والأبطال قبل استرداد السودان في سبيل استرداده ولا يذكرون بشيء بل يقوم منا من يهنئ الانجليز بأخذ ثأر غردون؟ أيكون دم فرد من الإنجليز غالي الثمن رفيع القدر، ودماء الآلاف من المصريين لا ثمن لها ولا تقابل بغير النسيان؟ لقد تعاظم الخطب وأصبحت الحياة مرة، وبات الوطن في اشد الأخطار، وكل منها يهمل واجباته وينتحل لنفسه عذرًا، فمنا من يطمع في الثروة والترقي، ومنا من يخاف الذل والفقر، ومنا من لا يشعر بالمسئولية، ومنا من استولى على قلبه اليأس والقنوط".

إلى أن قال:

"إذا ألقى الخطيب النصيحة على قومه ظن كل إنسان أن النصيحة موجهة لغيره لا له، فيقول: (لقد أصاب الخطيب ولكن الأمة ميتة)، فمن هي الأمة؟ ألستم من أعضائها وأهم أعضائها، أو ليست الأمة الفرد متكررا، فإذا قام كل واحد بواجباته وأصلح المعوج من أموره صلحت أحوال المجموع، وردُت على الأمة حريتها وسعادتها، ولبس الوطن ثياب الحياة والقوة".

ثم دعا في خطبته إلى قيام كل مصري بواجباته الوطنية، وإلى نشر التعليم القومي وتربية النشء تربية دينية، وفي الجملة كانت هذه الخطبة من أقوى خطبه، ودلت على مبلغ ما كان يعانيه من المتاعب والآلام في بعث الحركة الوطنية في جو مشبع بروح التخاذل والاستسلام وإيثار المصالح الشخصية على المصلحة القومية.

الفصل الثامن

جهاده سنة ١٨٩٩

اتفاقية السودان

obeikandl.com

صدمت الحركة الوطنية في مستهلّ سنة ١٨٩٩ صدمة جديدة بتوقيع اتفاقية السودان في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩، تلك الاتفاقية المشهورة التي خولت انجلترا رسميًا حق الاشتراك في إدارة شئون الحكم في السودان ورفع العلم الإنجليزي إلى جانب العلم المصري في أرجائه كافة، وتعيين حاكم عام للسودان بناء على طلب الحكومة البريطانية، ونتيجة ذلك ولا ريب هو سلخ السودان فعلا عن مصر، واستئثار الحكومة الإنجليزية بحكمه وإدارته، وقد جاءت هذه الاتفاقية منافية للحجج التي كانت انجلترا تتذرع بها في حاثة فاشودة، فإن حجتها الظاهرة في تلك الحادثة أنه لا يحق لفرنسا احتلال فاشودة لأنها أرض مصرية، وهكذا أعلنت الحكومة الإنجليزية بين أرجاء العالم أن السودان جزء لا يتجزأ من مصر، وصرح اللورد سالسبري في هذا الصدد: "إن وادي النيل كان ولا يزال ملكا ثابتًا لمصر، وأن حجج الحكومة المصرية في ملكية مجرى النيل وأن أخفاها نجاح المهدي إلا أنها ليست محلا للنزاع منذ انتصار الجنود المصرية على الدراويش"، وهكذا كانت انجلترا تنادي باحترامها لحقوق مصر، وتعلن أن السودان ارض مصرية وتنكر على فرنسا احتلالها فاشودة باعتبارها بقعة مصرية، ولكنها ما لبثت أن تنكرت لهذه الحقوق بعد انسحاب فرنسا من أعالي النيل، فكان أول اعتداء منها على هذه الحقوق إكراهها الحكومة المصرية على توقيع اتفاقية السودان في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩، قبل أن تمضي أشهر معدودة على انسحاب الكابتن مارشان من فاشودة، وليس يخفى أن هذه الاتفاقية فيها الاعتداء الصارخ على وحدة مصر والسودان، وفيها فصم لعرى الارتباط الوثيق بين جزئين لا يتجزءان من أرض الوطن الواحد [١] ولكن استسلام وزارة مصطفى فهمي باشا جعلها تقبل كل ما أراده الإنجليز.

فوجئت الأمة بإمضاء هذه الاتفاقية، بعد أن وقع عليها بطرس باشا غالي بالنيابة عن الحكومة المصرية، باعتباره وزير خارجيتها. واللورد كرومر بالنيابة عن الحكومة الإنجليزية، ولم يذع أمرها إلا عقب إمضائها، وكانت الصحف تجهل أمرها، ولم تنشر شيئًا عن مقدماتها ولا المفاوضات بشأنها، بل لم تحصل مفاوضات ما في صددها، وإنما هي إرادة اللورد كرومر أملاها على وزارة مصطفى فهمي باشا، فبلتها بلا مناقشة ولا شعور بالواجب، وكل ما حصل من المفاوضة بشأنها أن اللورد كروم ر سلم بطرس باشا غالي مشروع الاتفاقية كما وضعته وزارة

---

(١) أراد الإنجليز كذلك أن يمحو من الأذهان ذكرى فاشودة، فإن هذا الاسم أصبح بعد تلك الحادثة التاريخية التي اهتز لها العالم علمًا على امتلاك مصر لوادي النيل، فما زالوا به حتى غيروه ومحوه من خرائطهم و أطلقوا على (فاشودة) اسم (كودوك)، وغيروا أيضا اسم (مديرية فاشودة) فجعلوها مديرية (النيل الأعلى)، ومما يؤسف له أن الأطالس التي تطبعها الحكومة المصرية تحتوي على هذا المحو والتغيير.

خارجية انجلترا. فأخبر بطرس باشا الوزراء بالأمر، فبلوا المشروع دون أن يطلع أكثرهم عليه، فكان عملهم أفظع تسليم في حقوق البلاد، بعد تسليم وزارة نوبار في إخلاء السودان، وكان موقف وزارة مصطفى باشا مما ساعد الإنجليز على الافتيات والاعتداء على حقوق مصر وكرامتها، فقد كانت مهمتها تنفيذ أوامر الإنجليز بلا مناقشة ولا ضمير.

وقد سئل أحد أعضائها يومًا من صديق له: كيف تسكت الوزارة عن هذه الاعتداءات المتكررة فأجابه الوزير: وهل تريد منا أن نفعل في نهاية المسألة السودانية ما فعلته الوزارة الشريفية في بدايتها؟ وهبْ رئيسنا الآن أصبح شريفًا ثانيًا، أو لم يبق في الأمة نوبار آخر؟"، فتأمل في روح الخضوع والاستسلام وانعدام الشعور بالواجب في هذا القول المخزي.

obeikandl.com

نص اتفاقية السودان

ننشر هنا نص اتفاقية السودان لارتباطها بسياق الحديث

وفاق بين

حكومة جلالة ملكة الإنجليز

وحكومة الجناب العالي خديو مصر

بشأن إدارة السودان في المستقبل

"حيث أن بعض أقاليم السودان التي خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية قد سار افتتاحها بالوسائل الحربية والمالية التي بذلتها بالاتحاد حكومتا جلالة ملكة الإنجليز والجناب العالي الخديوي.

"وحيث قد أصبح من الضروري وضع نظام مخصوص لأجل إدارة الأقاليم المفتتحة المذكورة وسن القوانين اللازمة لها بمراعاة ما هو عليه الجانب العظيم من تلك الأقاليم من التأخر وعدم الاستقرار على حال على الآن، وما تستلزمه حالة كل جهة من الاحتياجات المتنوعة.

" وحيث أنه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلال الملكة المرتبة على مالها من حق الفتح وذلك بأن تشترك في وضع النظام الإداري والقانوني الآنف ذكره وفي إجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه في المستقبل.

" وحيث إنه تراء من جملة وجوه أصوبية إلحاق وادي حلفا وسواكن إداريا بالأقاليم المفتتحة المجاورة لهما.

"فلذلك قد صار الاتفاق والإقرار فيما بين الموقعين على هذا بما لهما من التفويض اللازم بهذا الشأن على ما يأتي وهو:

المادة الأولى

تطلق لفظة السودان في هذا الوفاق على جميع الأراضي الكائنة على جنوبي الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهي:

أولاً: الأراضي التي لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢، أو

ثانيًا: الأراضي التي كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الأخيرة وفقدت منها وقتيًا ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد، أو.

ثالثًا: الأراضي التي قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعدًا.

المادة الثانية

يستعمل العلم البريطاني والعلم المصري معا في البر والبحر بجميع أنحاء السودان، ماعدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها إلا العلم المصري فقط.

المادة الثالثة

تفوض الرئاسة العسكرية والمدنية في السودان على موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) ويكون تعيينه بأمر عالي خديوي بناء على طلب حكومة جلال الملكة، ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر عال خديوي يصدر برضاء الحكومة البريطانية.

المادة الرابعة

القانون وكافة الأوامر واللوائح التي يكون لها قوة القانون المعمول به والتي من شأنها تحسين إدارة حكومة السودان أو تقرير حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها وكيفية أيلولتها والتصرف فيها يجوز سنها أو تحويرها أو نسخها من وقت إلى آخر بمنشور من الحاكم العام، وهذه القوانين والأوامر واللوائح يجوز أن يسرى مفعولها على جميع أنحاء السودان أو على جزء معلوم منه، ويجوز أن يترتب عليها صراحة أو ضمنا تحوير أو نسخ أي قانون أو أية لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة، وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التي يصدرها من هذا القبيل على وكيل وقنصل وجنرال الحكمة بالبريطانية بالقاهرة، وإلى رئيس مجلس نظار الجناب العالي الخديوي.

المادة الخامسة

لا يسرى على السودان أو على جزء منه شيء ما من القوانين أو الأوامر العالية أو القرارات الوزارة المصرية التي تصدر من الآن فصاعدًا إلا ما يصدر بإجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها.

المادة السادسة

المنشور الذي يصدر من حاكم السودان ببيان الشروط التي بموجبها يصرح للأوروبيين من أية جنسية كانت بحرية المتاجرة أو السكنى بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعاية أية دولة أو دول.

المادة السابعة

لا تدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الأراضي المصرية حين دخولها على السودان، ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الأراضي المصرية، إلا أنه في حالة ما إذا كانت تلك البضائع آتية على السودان عن طريق سواكن أو أية ميناء أخر من موانئ ساحل البحر الأحمر لا يجوز أن تزيد الرسوم التي تحصل عليها من القيمة الجاري تحصيلها حينئذ عن مثلها من البضائع الواردة على البلاد المصرية من الخارج، ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التي تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت إلى آخر بالمنشورات التي يصدرها بهذا الشأن.

المادة الثانية

فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان ولا يُعترف بها فيه بوجه من الوجوه.

المادة التاسعة

يعتبر السودان بأجمعه ما عدا مدينة سواكن تحت الأحكام العرفية ويبقى كذلك على أن يتقرر خلاف بمنشور من الحاكم العام.

المادة العاشرة

لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأموري قنصليات بالسودان ولا يصرح لهم بالإقامة به قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية.

المادة الحادية عشرة

ممنوع منعًا مطلقًا إدخال الرقيق إلى السودان أن تصديره منه وسيصدر منشور بالإجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن.

المادة الثانية عشرة

قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليه سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بإدخال الأسلحة النارية والذخائر الحربة والشربة المقطرة أو الروحية وبيعها أو تشغيلها.

تحريرا بالقاهرة في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

الإمضاءات

كرومر – بطرس غالي

obeikandl.com

وقد **احتج الفقيد** على هذه الاتفاقية احتجاجًا شديدًا، وأسمع العالم الأوروبي صوته المدوّي كعادته في الدفاع عن القضية الوطنية.

نشرت جريدة (الجولوا) الفرنسية خطابا للمترجم بالعدد الصادر في ٦ فبراير سنة ١٨٩٩ هذا تعريبه:

" جناب المدير المحترم

"إن اتفاقية السودان المزعومة بين مصر وانجلترا قد جاءت برهانًا جديدًا على عدم مراعاة انجلترا للعود والمؤتمرات، الشيء الذي يعتبره المصريون جميعًا باطلاً لأنه مخالف للنظامات الأوروبية والقوانين الدولية، فإنه أولاً ليس لحكومة مصر أي حق في عقد اتفاقية كهذه الاتفاقية، لأنها تخالف نصوص الفرمانات السلطانية الصادرة إلى خديو مصر، وإذا قال قائل إن السودان سلخ من مصر بقرار وزاري أو بأمر عالي في سنة ١٨٨٤ وأصبح السودان خارجا عن أملاك مصر ولا يصح أن تطبق عليه نصوص الفرمانات السلطانية، فإننا وكل رجال القانون نعتبر هذا السلخ غير قانوني لأن نصوص الفرمانات صريحة في أن ليس لمصر الحق في التنزل أو استبعاد أي جزء من أجزائها عنها بإرادتها، إذًا فالسلخ غير جائز، وعقد الشركة عمل باطل، وفيه اعتداء صريح من إنجلترا المحتلة للبلاد.

" ثم ألم يصرح ميثاق "ترابيا" [1] الذي كانت انجلترا في مقدمة الدول الست التي وقعت عليه بأنهن يتكاتفن في المحافظة على أملاك مصر وألا يكون لإحداهن ميزة على الأخرى، وأنه لا يجوز لأية واحدة منهن أن تبيح لنفسها امتلاك شبر من الأراضي المصرية.

"عارضت الحكومة الفرنسية في قرض تجريدة السودان، وقد كان حكم المحاكم المختلفة وهي الممثلة لجميع الدول موافقًا لرأيها، فجاءت انجلترا وأقرضت مصر ما احتاجت إليه من المال، ثم ماذا جرى بعد ذلك؟ أدخل الإنجليز أنفسهم ببعض جنود ليسوا في العير ولا في النفير ليسوغوا هذه النتيجة السيئة التي ليست في نظرنا إلا اغتيالا للحقوق القومية في رائعة النهار وسرقة على مشهد من الأمم جمعاء.

---

(١) هو العهد المعروف بميثاق النزهة، وقد وقع عليه أعضاء مؤتمر الأستانة في ترابيا على شاطئ البوسفور في إبان الحوادث العربية وبمقتضاه تعهدت الدول الست بأنها في كل اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث عن احتلال أي جزء من أراضي مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها (راجع في تفصيل ذلك كتابنا عن الثورة العرابية ص ٣٢٤ وما بعدها طبعة سابقة).

"إن الجنود الإنجليزية اشتركت اسما في حملة دنقلة ليسوغ الإنجليز هذا العمل بعد أن صرح سواسهم أمام العالم كله بأنهم لا يقصدون بإرسال جنودهم إلى السودان صحبة الجنود المرية إلا ليردوه على مصر تنفيذًا للخطة التي رسموها من احتلالهم مصر وإجابة لصوت شرفهم، ألم يقل اللورد سالسبري بأعلى صوته:" إننا نعمل لرد السودان إلى مصر".

"انتظرنا وانتظر العالم كله نتيجة هذا الاسترداد، فكانت فظاعة انجليزية متناهية، إذ نبشوا القبور وبعثروا الجثث وأهانوا الموتى وخالفوا في ذلك تاريخ المتقدمين والمتأخرين من المتحضرين، ثم قامت معضلة فاشودة بين كتشنر ومارشان أو بعبارة أخرى بين الحكومتين الإنجليزية والفرنسية، وانتهت بتقهقر فرنسا، فمطمع الإنجليز طمعًا كبيرًا ورفعوا رأيتهم على الخرطوم بجوار الراية المصرية، وقد رفعوها سوداء ليوهموا أنها حداد على غردون وبذلك يكونون آمنين شر هياج الجنود المصرية! أخذوا بعدئذ يوزعون الجنود المصرية هنا وهناك، حتى إذا خلا لهم الجو ونضجع الطعام بين كراسي الوزراء المصريين أكلوا:لتهم وبدلوا الراية السوداء براية هذه الشركة المشئومة.

"هذا ما جرى، وإنا ننتظر أن تعضد أوروبا الحكومة العثمانية التي لابد أن تحتج احتجاجًا شديدًا على هذا العمل المخالف للعهود والمعاهدات والشرف كل المخالفة، نعم إن أوروبا إذا لم تعمل ما تحتمه عليها واجباتها استهانت انجلترا بأمرها وأتت من المنكرات في وادي النيل ما لا يكون السودان بجانبه شيئًا مذكورًا، فإن المسألة لم تكن مسألة السودان فقط بل هي مسالة مصر نفسها، بل مسالة إفريقية أيضًا، فإن مصر لا تكون بلدًا غنيًا قادرًا على القيام بدفع ديونه إلا إذا كان مالكا لينابيع النيل التي هي في صميم السودان، وإن مشاركة انجلترا لمصر في تملكه، وهي الشرهة الطامعة التي لا يكفيها نصيب أو نصيبان، لما يهدد المصالح الأوروبية ويجعل المستقبل مظلمًا وتصبح الدول التي تظن بها اليوم خيرًا في مقدمة الساخطين على جشعها.

"كذلك فإن لكثير من الدول الأوروبية أملاكا في إفريقية، وهذه الأملاك تصبح لا محالة تحت رحمة الدولة الإنجليزية التي لا تريد إلا أن تضع يدها على كل إفريقية ليكون لها منها هند ثانية، وإن الحملات العديدة التي حملتها بواسطة رجالها السياسيين على حكومة الترنسفال والأورنج ليست إلا دليلا قويا على حقيقة مطامعها الإفريقية.

"أما فرنسا فإنها بسبب هذه الساسة قد أساءت إلى نفسها كثيرًا، فبعد أن كان المصريون يعتمدون بعض الاعتماد عليها وكان الخديو يجدها الدولة الثانية بعد الدولة العثمانية للمدافعة عن حقوقه وحقوق أمته، أصبحوا اليوم وهي أمامهم من حيث التأثير في المسألة المصرية اقل من أضعف دولة أوروبية، نعم أني أصرح بذلك جهارًا لأن السياسة القائمة على الجبن والخوف ليست إلا سياسة مضيعة للحقوق مبددة للنفوذ، مزرية بكل كرامة، وإني لا اقصد بذلك أنه كان

يجب على فرنسا أن تحارب انجلترا بشأن فاشودة، كلا، ولكنني كنت أرى من الحكمة أن تقبل ترك فاشودة بشرط أن يعود كل شيء على مصر، حتى إذا حانت ساعة الخلاص عادت مصر إلى قوتها وفي يدها كل أملاكه، ولكن الحال كانت على الضد من ذلك، إذ تظاهرت فرنسا بالرغبة في الدفاع عن عمل رجلها الكبير مارشان وشرف رايتها، ثم في لحظة واحدة تنزلت عن هذا الدفاع بلا ثمن، فأخجلتنا بالحط من كرامتها وبعثت اليأس من جهتها إلى قلوب كثيرة كان تراها من قبل دولة الهمة والكرامة، أما من جهتي، فإن لا أيأس أبدا من مستقبل بلادي، بل بالعكس أجد التمسك بالدفاع عنها في شدتها أوجب عليّ منه في رخائها، وأنه إذا كانت انجلترا تلعب بمصالح الدول فإنها لا تستطيع أن تلعب بقلوبنا التي تنمى فيها بعلمها الجائر الحنق عليها كل يوم، وإننا إذا كنا نحمل لها اليوم شيئًا كثيرًا من الكره والحنق، فإننا في متقبل الأيام سنكون ألد أعدائها العاملين على نكالها إذا هي بقيت مصرة فإننا في متقبل الأيام سنكون ألد أعدائها العاملين على نكالها إذا هي بقيت مصرة على مخالفة وعودها وعهودها معنا، ومضيّها في هذه الشركة الباطلة.

"وليعلم الفرنسيون الذين نجلهم ونحترمهم ونحفظ لهم جميلهم السابق أن عمل ساستهم لا يمحو حسناتهم معنا، ولكن، وهو ما نأسف له، لم يبق في قلوبنا ذرة من الاعتماد عليهم بعد أن أعلنت الأيام خيبة ساستهم في وادي النيل".

مصطفى كامل

obeikandl.com

دعوته إلى نشر التعليم القومي

اتجهت عزيمة المترجم منذ سنة ١٨٩٩ إلى حث الأمة على نشر التعليم القومي في أرجاء البلاد لكي تقوى الروح الوطنية في نفوس الجيل الجديد ويستعد الشباب للاضطلاع بأعباء الجهاد، وان المرحوم حسين بك القرشوللي أحد سراة الأعيان بالقاهرة أول من لبى دعوته وأسس مدرسة على نفقته بالحلمية، وأقام لافتتاحها احتفالا فخما في سراي الحلمية في يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٩ عيد الجلوس الخديوي، وقد أمّه جمع كبير من العظماء والكبراء وأساتذة المدارس والموظفين والأعيان، وكان المترجم خطيب هذا الاحتفال، وقد شكر صاحب المدرسة الحاضرين على تلبيتهم دعوته على حضور الحفلة، ثم دعا المترجم إلى الخطابة، فوقف وألقى خطبة نفيسه في الحث على نشر التعليم القومي، بدأها بشرك صاحب المدرسة على أريحيته، قال" "ولئن قصرنا في مديحه والثناء عليه، فلسوف يذكره التاريخ بالحمد الجزيل مادام هذا العمل المبارك قائما يبعث النور على العقول وغذاء التربية السليمة إلى النفوس"، ونوه بالمعاهد والمدارس التي تأسست في مصر على عهد محمد علي وكان لها الفضل في نهضة مصر العلمية، ثم استحث أعيان البلاد وأغنياءها على البذل في سبيل إقامة صرح العلوم والمعارف في البلاد.

إنشاء مدرسة مصطفى كامل

(مارس سنة ١٨٩٩)

وكان من أثر دعوته إلى نشر التعليم القومي أن هزت الأريحية اثنين من الشبان وهما محمد أفندي سعيد التومي وأحمد أفندي صادق، فأسسا في جهة باب الشعرية مدرسة أهلية بسراية العزبي، وطلبا من الفقيد أن يقبل تسميتها باسمه، فقبل منها طلبهما بكل ارتياح وأعلنا عن ذلك في الصحف في يناير سنة ١٨٩٩ [١].

سارت المدرسة بإدارة مؤسسيها نحو ثلاثة أشهر، ثم رأيا أن تكون ملكا للفقيد يتولى زمامها ويقوم بأعبائها ونفقاتها وإدارتها، وأعلنا عن ذلك في مارس سنة ١٨٩٩، فقبل الفقيد هذا العبء على جانب أعبائه السياسية والوطنية، لأنه رأي في إنشاء هذه المدرسة وإدارتها توجيها للنشء الجديد إلى التربية القومية التي تغرس في نفوسهم الفضائل الوطنية والدينية، ونشر بهذه المناسبة البيان الآتي:

---

(١) المؤيد عدد أول يناير سنة ١٨٩٩.

" حضرة مدير جريدة المؤيد

" علم قراء جريدتكم الغراء أن المدرسة المسماة باسمي بباب الشعرية قد آل أمرها إلىّ وأصبح شقيقي هو المدير لها

"إني أعلم أن حمل المدرسة ثقيل وأتعابها كثيرة ونفقاتها طائلة، ولكني قبلتها بكل ارتياح أملا مني في خدمة أبناء الوطن العزيز وترقية مدارك الناشئين، وإن أتشرف اليوم بإعلان الجمهور أن التعليم في هذه المدرسة مقرون بالتربية، لأني أعتقد أن التعليم بلا تربية عديم الفائدة، بل ربما كان كثير الأضرار، واقصد بالتربية التربية الإسلامية المحضة لأن أساس التربية الدين، وكل أمة تربي أبناؤها على غير قواعد الدين تكون عرضة للدمار والانحطاط.

"وقد رأيت بنفسي في أغلب مدارس أوروبا اهتمامًا فائقًا بتعليم الدين المسيحي للناشئين، لذلك عولت على جعل الغرض الأول من المدرسة ترقية الملكة الإسلامية عند التلاميذ، وتمكين مبادئي محبة الوطن والاتحاد والائتلاف من نفوسهم، وتقديم اللغة العربية على كل لغة، مع ترك الحرية لآبائهم في الاختيار لهم بين اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية، ورغبة مني في نفع أبناء الفقراء فقررت قبول ثلاثين في المائة منهم مجانا.

"إني أسأل الحق سبحانه وتعالى أن يوفقني وجميع المصريين لخدمة الوطن العزيز الذي أرى السعادة الكبرى في التفاني لأجل سعادته، هذا وأرجو منكم أن تتفضلوا بنشر هذه الكلمات في محليات جريدتكم وأن تقبلوا الخ.

مصر في ٢٨ مارس سنة ١٨٩٩ المخلص

مصطفى كامل

وقد انتقلت المدرسة في يناير سنة ١٩٠٠ من سراي العزبي إلى السلحدار بشارع أمي الجيوش البراني، وعني الفقيد بأمر هذه المدرسة ووضع لها برنامجا صالحًا يجمع بين التعليم وتهذيب الأخلاق، وكان يقيم في ختام كل عام دراسي احتفالا سنويًا لتوزيع الجوائز على النابغين في المدرسة تشجيعًا لهم على الاستزادة من العلم، وكانت هذه الاحتفالات تجمع أكابر القوم، وكان المترجم يلقي فيها خطبًا جامعة تزيد من روعتها وتعلى من قدرها.

سفره إلى أوروبا

(أبريل سنة ١٨٩٩)

برح مصطفى كامل ثغر الإسكندرية يوم ٤ إبريل سنة ١٨٩٩ قاصدًا أوروبا ليستأنف جهاده في محافلها وأنديتها وصحافتها، فذهب على فيينا ثم على باريس فبرلين فبودابست وفي كل عاصمة كان يرفع صوت مصر على صفحات الجرائد الكبرى، ثم ذهب على الأستانة وحادث مراسلي الصحف الأوروبية والأمريكية عن المسألة المصرية.

الإنعام عليه برتبة المتمايز

وفي يونيه سنة ١٨٩٩ أنعم عليه السلطان برتبة المتمايز فصار (مصطفى بك كامل)، وما ذاع نبأ الإنعام عليه في مصر حتى ارتاحت له نفوس أصدقائه وأنصاره، ونفوس الوطنين عامة، وعدوه تكريمًا للحركة الوطنية في شخصه، وتلقى التهاني من الجهات كافة.

وعاد إلى باريس في يونيه سنة ١٨٩٩، وألقى في قصر مدام جولييت آدم يوم ١٨ يونيه خطابًا سياسيًا دفاعًا عن مصر ومطالبها، سمعه الكثيرون من الكتاب والسياسيين الذين كانوا يؤمون دار هذه السيدة العظيمة.

عودته إلى مصر

وعاد إلى مصر معرجًا على الأستانة فأنعم عليه في أغسطس بالرتبة الأولى من الصنف الثاني، ثم بالوسام المجيدي الثاني.

خطبته بالقاهرة (١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩)

وألقى يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩ خطبة رائعة بالتياترو الطلياني كان لها دويّ كبير في جميع المحافل والدوائر، افتتحها بالكلام عن مصر في عهد الاحتلال قائلاً:"إنه كلما تقادم هذا العهد تضاعفت واجباتنا نحو الوطن العزيز، فقد ظهر للعالم أجمع أن انجلترا تعمل للاستيلاء على مصر ووادي النيل، وترمي على نزع كل سلطة من أيدي المصريين، وتحقق للعامة والخاصة أن المدنية الإنجليزية لا تعرف في سياستها مع الأمم الضعيفة معنى للوعود والعهود، ولا ترعى حرمة للعدل والإنصاف".

وطعن في سياسة أوروبا قائلاً:

"كنا نود من صميم أفئدتنا أن يقوم الإنجليز بوفاء وعودهم واحترام شرف عهودهم، وأن يبرهنوا للعالمين أن المدنية الصحيحة هي المدنية القائمة على الفضائل الحقيقية، المنافية لاغتيال حقوق الأمم، ولكن من سوء حظ النوع البشري أن المدنية الحاضرة أبطلت الرق في الأفراد وأعلنته في الشعوب، واستهجنت مخالفة الذمة والشرف في المعاملات الشخصية وسمحت بها في المعاملات الدولية".

ثم انتقل على الكلام عن حالة الأمة المصرية وما هي عليه من التأخر قائلاً: "إن المسالة المصرية الحقيقية ليست في مسالة الاحتلال، ولكنها مسألة تأخر الأمة المصرية، واستحكام الشقاق بين أفرادها، وما مسألة الاحتلال الإنجليزي إلا مسالة فرعية بالنسبة لها، فإن بقاء الأمة متأخرة منحلة الأعضاء يعرضها إلى كافة الأخطار في سائر الأزمان، وتقدمها في طريق العرفان واتفاق بينها على خدمتها وتعاضدهم على إسعادها يحميها من الطوارئ والنوازل ويقيها شر الأعداء".

ودعا إلى تعميم التربية والتعليم وجعل الدين أساس التربية الصالحة.

obeikandl.com

الفصل التاسع

ظهور اللواء – والجهاد الأكبر

(يناير سنة ١٩٠٠)

obeikandl.com

بدأ مصطفى كامل حياته الصحفية وهو بعد في مدرسة الحقوق، إذ أصدر مجلة (المدرسة) في فبراير سنة ١٨٩٣، كما تقدم بينه في الفصل الثاني (ص ٤٧)، ثم أخذ يرسل مقالاته إلى الصحف من مصرية أوروبية كما أسلفنا، وكانت (الأهرام) أكثر الصحف ترحيبًا بمقالاته، يليها (المؤيد)، وقد رأي الفقيد أن لابد له من جريدة يومية يتصل بالرأي العام بواسطتها باستمرار، ويغذي بها عقول القراء ونفوسهم، ثم تكون علمًا للحركة الوطنية التي بعثها واقتاد زمامها وقد اختار لهذه الجريدة اسم (اللواء)، فكان اختيارًا موفقًا، غذ كان اللواء هو الراية التي التف حولها الوطنيون سنين عديدة طول حياته، وبعد وفاته، وكان ظهور اللواء من ابرز أعمال الفقيد وأكبرها أثرًا في الشعب وفي الحركة الوطنية، حتى صار أكبر تعريف له بين معاصرين أنه (صاحب اللواء)، وعلت منزلة (اللواء) في نفوس الشعب، وصار اسمه محببًا للنفوس، حتى سمي باسمه كثير من محلات التجارة والمقاهي والمعاهد، وإلى الآن اسم (بار اللواء) علمًا للمقهى المعروف بهذا الاسم أمام دار الأهرام، واسم (أجزخانة اللواء) علمًا على الصيدلية الموجودة بباب اللوق..الخ.

أعد المترجم معدات (اللواء) عام ١٨٩٩، وصدر العدد الأول منه يوم الثلاثاء ٢ يناير سنة ١٩٠٠ (غرة رمضان سنة ١٣١٧هـ)، وكانت داره الأولى بالمنزل رقم ١٣ بشارع فهمي بجوار محطة باب اللوق، ثم انتقل بعد حوالي عامين على المنزل الفخم رقم ٢٩ بشارع الدواوين [١] (نوبار باشا الآن)، أمام وزارة العدل، وهو المنزل الذي عرف بدار اللواء وتوفي فيه الفقيد، وقد علا شأن الجريدة في عالم الصحافة من أول ظهورها، وأخذت مكانتها في نفوس الشعب، ولا غرو فإن شخصية صاحبها قد حببتها على القلوب، وأضفت عليها روعة ومكانة سامية، وكان المترجم لطول خبرته بالصحافة واتصاله المستمر بها سواء في مصر أو في أوروبا قد اكتمل نضجه الصحفي، فضلا عن كفايته وذكائه ومقدرته الفكرية في التحير والإدارة، فظهر الفن الحفي في اللواء كاملاً، مما كان له أثره في انتشاره وعلو مكانته، وكان يصدر يوميًا باستمرار حتى في يوم الجمعة، ولا يحتجب عن القراء إلا في اليوم الأول من عيد الفطر وعيد الأضحى، ثم أخذ يحتجب يوم الجمعة ابتداء من شهر مايو سنة ١٩٠١، وكان يصدر في أربع صفحات، ثم في ثماني صفحات باستمرار منذ أواخر سنة ١٩٠٦، بعد أن أحضر له آلة طباعة كبرى تطبع في الساعة الواحدة ١٢٠٠٠ نسخة.

---

(١) الآن رقم ٣١ مكان مدرسة عابدين الابتدائية الأميرية.

وكان الفقيد يكتب افتتاحية اللواء في أكثر الأيام ويوقع عليها بإمضائه وممن كانوا يكتبون فيه المغفور له محمد بك فريد، وأحمد شوقي أمير الشعراء، وإسماعيل باشا صبري، وخليل بك مطران، ومصطفى بك نجيب مؤلف كتاب (حماة الإسلام) وإسماعيل بك شيمي، والأستاذ ويصا واصف، والأستاذ محمد فريد وجدي، ومحمد بك لبيب البتانوني، ومحمود بك سالم، وفؤاد بك سليم (باشا)، ومحمود بك أنيس، ومحمود أفندي سلامة، وأحمد أفندي حلمي، والأستاذ عبد القادر حمزة، والأستاذ محمد لطفي جمعة، ثم عثمان أفندي صبري، وسيد علي، وأمين عمر (أبو حفص)، ومحمد صادق عنبر، ومحمد علام، وغيرهم، ثم أخذ تلاميذه يكتبون فيه منذ سنة ١٩٠٦، وصار اللواء شبه مدرسة تعلم المصريين حقوقهم وواجباتهم، وتبث فيهم روح الوطنية والأخلاق، وتبصرهم بحقائق بلادهم ومساوئ الاحتلال وصنائعه، وتستحثهم على الجهاد في سبيل الاستقلال، وكان الفقيد لا يفتأ يذكرهم على صفحاته بعبر التاريخ، ويحي ذكريات الحوادث الماضية من مفاخر وهزائم، كذكرى تنصيب محمد على بإرادة الشعب، وهزيمة الإنجليز في معركة رشيد سنة ١٨٠٧ ثم ذكريات ضرب الإسكندرية سنة ١٨٨٢، واحتلال الإنجليز العاصمة، وكان أيضًا يفسح صحائف اللواء لبيان جهاد الأمم في سبيل حريتها، ويضرب الأمثال للأمة بما يجب أن يكون عليه الجهاد والعمل، فضلاً عن البحوث العلمية والاقتصادية، والاجتماعية والأدبية، فغذي بذلك عقول المصريين ونفوسهم بروح الوطنية.

وأصدر مجلة أسماها (مجلة اللواء)، وهي مجلة شهرية تشتمل على أهم المقالات التي تنشر في جريدة اللواء اليومية، وصدر العدد الأول منها في فبراير سنة ١٩٠٠، وفي ١٩٠٥ أصدر جريدة أسبوعية باسم (العالم الإسلامي) كان ينشر فيها المقالات والأنباء التي تهتم الأمم والدول الإسلامية، وبخاصة تعريب ما تكتبه الصحف والمجلات الأوروبية عن العالم الإسلامي.

ولقد كنتُ حينما ظهر اللواء سنة ١٩٠٠ لا أزال تلميذًا بالقسم الابتدائي بمدرسة رأس التين بالإسكندرية، حيث كان والدي يتولى منصب الإفتاء بمحكمتها الشرعية ولم أكن قد فطنت بعد لقراءة الصحف، وقضيت معظم القسم الثانوي أيضًا غير ملتفت غليها، وبدأت خلال سنة ١٩٠٤ أذهب على قهوة بلدية أنيقة بشارع رأس التين، تجاه سراي محسن باشا، في كل أسبوع مرة، وكان صاحبها "الحاج أحمد" يقدم لنا شراب الليمون (الليمونادة) وكان يتقنه كل الإتقان، حتى صار علمًا على قهوته، ويطلعنا على بعض الصحف، ومنها اللواء، ولكن لم أتبين بعد منهجه، ولا منهج الصحف الأخرى، ولم تكن في ذهني أي صورة عن مصطفى كامل، إذ لم رأيته بعد أو سمعته، وكنت وقتئذ في الخامسة عشرة من عمري، ولما ذهبت إلى القاهرة ودخلت مدرسة الحقوق (أكتوبر سنة ١٩٠٤) لفت نظري اسم قهوة بجوار المدرسة تسمى (قهوة الحقوق) بشارع عابدين، لصاحبها الخواجة (أندريا)، فأعجب طلبة الحقوق وأنا منه بهذا الاسم، واخترناها لنقضي

أوقات الفراغ والسمر بها وبدأت هناك أقرأ اللواء قراءة فهم وإدراك، فتعجبني روحه ومقالاته، م ثم صار بمثابة المدرسة التي تلقيت عنها مبادئ الوطنية، كما أنه كان مدرسة للجيل كله.

خطبة الفقيد بالإسكندرية

(يونيه سنة ١٩٠٠)

لم تصرف الفقيد أعماله في الصحافة عن توجيه الرأي العام بخطبه الوطنية التي كان لها من الوقع والأثر في النفوس أضعاف ما كان القلم والكتابة، فألقى مساء ٢ يونيه سنة ١٩٠٠ خطبة سياسية بتياترو زيزنيا بالإسكندرية، في جمع كبير من الوطنيين، وحضرها كثير من الأجانب، وكان موضوعها شرح الحالة السياسية في ذلك الحين، وشحذ العزائم لمتابعة الجهاد والإشادة بالوطنية، ثم الرد على حملات الصحف الأوروبية في ذلك الحين على الإسلام، بدأ الخطبة بقوله:

" سادتي وأبناء وطني الأعزاء.

"كلما جئت الإسكندرية، ورأيت هذه الحياة الحقيقية التي جعلت لكم مقامًا محمودًا بين بني مصر، أعود شاعرًا بأن لي في هذه المدينة الزاهرة أساتذة في الوطنية عنهم تؤخذ دروس محبة الأوطان، ومنهم تعرف الأمة حقوقها وواجباتها، وهذا ما أخرني في السنين الأخيرة عن الوقوف أمامكم هذا الموقف، ومناجاتكم في شئون الوطن العزيز، ولكني أشعر بأن تبادل الميول، وانتقال العواطف الطاهرة من فؤاد إلى فؤاد، واجتماع القلوب في وقت واحد حول آمال واحدة، وسريان روح مشتركة في هذا المجموع العظيم، مما يزيدنا اعتقادًا على اعتقاد، وحبًا للديار على حب، ويخفف عن الوطن المقدس آلام مصائبه العظام".

وقال عن إيمانه بالمستقبل:

"إني أشد الناس أملاً في مستقبل أمتي و بلادي، وأرى الشعب الذي أنا منه جديرًا بالرفعة والسمو، حقيقًا بالمجد والحرية والاستقلال، ولولا هذا الأمل وهذا الاعتقاد لكنت فارقت الحياة وتركت الدنيا غير آسف على أحد، وكيف لا أكون ذا أمل وهذه أمتي أجد فيها روحًا جديدة وحياة صادقة ووطنية ناشئة قوية، ومن منكم لا يرى ما أرى؟ هل ينكر أحد شعور الأمة بحالتها وانتباهها من رقدتها وقيامها من وهدتها وعملها لخيرها وسعادتها".

ومما قاله في الرد على حملات الصحف الأوروبية على الإسلام لمناسبة مقالات المسيو هانوتو:

"قد يظن بعض الناس أن الدين ينافي الوطنية، أو أن الدعوة على الدين ليست من الوطنية في شيء ولكني أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان، وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطن حبًا صادقًا، ويفديه بروحه وما تملك يداه، ولست فيما أقول معتمدًا على أقوال السالفين الذين ربما اتهمهم أبناء العصر الحديث بالتعصب والجهالة، ولكني استشهد على صحة هذا المبدأ بكلمة بسمارك أكبر ساسة هذا العصر وهو خير رجل خدم بلاده ورفع شأنها، فقد قال هذا الرجل العظيم بأعلى صوته" لو نزعتم العقيدة من فؤادي لنزعتم محبة الوطن معها".

وقال عن ارتباط المسلمين والأقباط:

"كيف يستطيع رجل وطني أن يدعو للشقاق والبغضاء، وهذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة، فالأقباط إخوة لنا في الوطن تجمعنا بهم اشرف رابطة، وقد عشنا معهم القرون الطوال، وعلى أتم وفاق وأكمل اتفاق".

وكانت الخطبة من أبدع وابلغ خطبه في الوطنية.

سفره على أوروبا (يونيه سنة ١٩٠٠)

سافر الفقيد على أوروبا عن طريق الإسكندرية يوم ١٦ يونيه سنة ١٩٠٠ كعادته السنوية، وعهد بإدارة اللواء في غيبته إلى شقيقه على بك فهمي كامل.

وكان لا يفتأ يرسل مقالاته الوطنية إلى اللواء في سياحته، يناجي بها الوطن ويسدي على المصريين نصائحه السامية، فمن ذلك مقالته (صورة الوطن العزيز) كتبها على ظهر الباخرة سميراميس التي أقلته من الإسكندرية ونشرت في لواء ٢٨ يونيه ١٩٠٠، ومقالة (وطن كوشوت) أرسلها من بودابست في ٣٠ يونيه سنة ١٩٠٠ عن جهاد كوشوت بطل المجر، ومقالته (مظاهر المدنية الحقة) من فيينا في ٣١ يوليه سنة ١٩٠٠ عما يجب أن يفيده السائح المصري في أوروبا، قال فيها: "لا يدرك الشرقي منا أسرار المدنية الغربية وأسباب قوة ممالكها إلا إذا زار المدارس والمعامل، هنا وهناك، ووقف على نظامات الحكومات، وقرأ دستورها، وأدرك أن كل جنس منها غيور على عاداته وأخلاقه، حريص على دينه ولغته، وأن الفرد يمثل في نفسه الأمة بأسرها، ويسير في كل حركاته وسكناته على ناموس ثابت ودستور لا يتغير".

وعاد على مصر في أغسطس سنة ١٩٠٠، واستأنف جهاده الصحفي في اللواء، وكتب في عدد ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٠ مقالة مهمة عن ذكرى احتلال الإنجليز العاصمة.

دعوة الأمة إلى الاعتماد على نفسها

وأقام يوم أول أكتوبر سنة ١٩٠٠ احتفالاً فخمًا في مدرسته لتوزيع الجوائز على النابغين من تلاميذها، وقد أمه جمع كبير من صفوة القوم دل على ما ناله في نفوس المصريين من محبة واحترام وتقدير لجهاده في سبيل الوطن، وكان في مقدمة الحاضرين إسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين في ذلك العهد، وألقى على بك فهمي كامل خطبة كشر فيها الحاضرين وأفاض في بيان أعمال المدرسة، ثم وقف الفقيد وألقى خطبة نوّه فيها بفضل العلم، وجعل موضوعها وجوب اعتماد الأمة على نفسها في نهضتها، قال في هذا الصدد:

"لست الآن واقفًا أمامكم وقف المتباهي بعمله المعجب بصنعه، ولكني واقف موقف الخادم لأمته، المفدي نفعها براحته، فقد أسست هذه المدرسة غير مفكر في صعوبة العمل وخطورة الأمر، غير ملتفت إلى أقوال المثبطين للهمم، المميتين للعزائم، ونهضت بها مدفوعًا باعتقاد تملك فؤادي وهو أن كل فرد في هذه الأمة مطالب بخدمتها مهما قصر الآخرون وأهمل المهملون؛ وسرت في طريقي هذا معتمدا على فاطر الأرض والسماء، نصير العاملين، وعود المجتهدين".

إلى أن قال:

" إن كل فرد مهما كان صغيرًا مطالب بواجب يؤديه لبلاده ووطنه وأمته، ولو ترك كل مصري لأبنائه من بعده حب العمل وعدم الاعتماد على الغير إرثا، لأصبحنا وفينا حياة طيبة تحي الآمال، وتبعث العزائم عند الرجال، وإني لست أردى لبلاده آفة تهددها بالفناء مثل اعتقاد أبنائها أن الحكومة هي كل شيء وبيدها كل أمر وعليها كل واجب، وأنهم لا يسألون عن هذا الوطن أبدًا، وعلى حين أن التاريخ ينطلق بأفصح بيان أن الأمة التي تعتمد في كل شئنها على حكومتها أمة منزلتها من الحكومة منزلة العبيد من سيده، أما الأمة التي تظهر في ميدان الحياة بنشاطها وجهادها وأعماله، متحدة مع الحكومة تارة، عاملة وحدها تارة أخرى هي الأمة التي منزلة الحكومة منها منزلة العبد من سيده، وها هي ذي الأمم الغربية تجدها تسبق حكوماتها في فتح المدارس وإنشاء المكاتب وتأسيس المستشفيات والقيام بكل عمل خطير، مع أن حكوماتها من الثروة وقوة السلطان بمكان".

دعوته إلى إحياء الصناعة

ودعا في اللواء إلى إحياء الصناعة في مصر ونشر التعليم الصناعي في عدد ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠، قال في هذا الصدد:

" فإيجاد روح الصناعة في البلاد هو بلا مراء أمسى خدمة تقدم إليها وأكبر سعادة تجهز لرجال الغد، وقد أدرك الكثير من فضلاء مصر هذه الحقيقة وهذا الواجب، فتبادلوا الحديث في أمر تأسيس مدرسة صناعية، ولكنه لم يتعدوا ذلك على العمل، وأشد المصريين اهتمامًا بهذا المشروع الجليل هم أعضاء جمعية العروة الوثقى الذين برهنوا بأعمالهم المشهور على أنهم رجال عمل يعرفون لمصر حقوقها عليهم ولا يقصرون في تأدية هذه الحقوق، فوضع لهم صاحب الهمة الحديدية "حسبو بك محمد" مشروع تأسيس مدرسة صناعية لا يكلفهم من المال كثيرًا ولكنه يعود على البلاد وأبنائها بالخير الجزيل".

إحياء ذكرى الرجال العاملين

كان الفقيد لا يفتأ يدعو الأمة على إحياء ذكرى العظماء والأفذاذ الذين خدموها في نهضتها، ويرى في ذلك دليلاً على حياة الأمة، وقد كتب في عدد ١٠ مارس سنة ١٩٠١ يؤنب الأمة على إهمالها تخليد ذكرى فقيد المعارف على باشا مبارك، قال:

– "لا شيء يرفع جال مقام الوطنية في بلاد مثل إحياء ذكرى الرجال الذين أخلصوا في خدمتها، وقضوا أعمارهم في العمل لإعلاء شأنها وتحقيق آمالها، ولا شيء يميت الوطن والوطنية مثل تمكن داء النسيان في أمة وجهلها لتاريخها، وعدم تقديرها للرجال المخلصين في خدمتها، وقد بليت هذه الأمة المصرية العزيز بذلك الداء العضال، فتراها لا تذكر الرجال إلا إذا كانوا القابضين على أزمة أمورها، أو المحركين لحركة الرأي العام فيها، ولا تهتم بالحوادث إلا عند حدوثها فليس للمصائب في نفوس أبنائها أثر يبقى، وليس كذلك للعظمة الماضية بقية باقية في الأفئدة والضمائر، فلا غرابة إذا كان ذلك للعظمة الماضية بقية في الأفئدة والضمائر، فلا غرابة إذا كان ذلك سببًا من أسباب تأخرها وعلة من علل انحطاطها" على أن قال:

" نهض المصريون عند وفاة المرحوم على باشا مبارك نهضة النار في الرياح ونادي كبير منهم بوجوب عمل اكتتاب عام لإقامة اثر يخلد ذكرى هذا الشيخ الجليل الذي خدم العلم والأدب والوطن خدمة لا تنسى، ولا يصح لأمة تريد أن تحيا أن تناسها، فجمع شيء من المال، ومضت الأيام والأعوام، وهذا المشروع دفين لا يريد القوم أن يظهروه للملأ مرة ثانية، أو يحدثوا الناس

عند حديثًا جديدًا، فماذا تم فيه؟. وماذا قررت اللجنة المكلفة بإخراجه إلى الوجود؟ هل ذهبت من النفوس محبة فقيد المعارف؟ أم محت الأيام فضله وقضت على عمله حتى نسى ونسيت آثاره؟ اللهم إن مصر لا تنال من السعادة نصيبها، ولا تبلغ من الاستقلال مطلبها إلا إذا جعل أساس تربية أبنائها تخليد ذكري النافعين من رجالها وبث في نفوس الناشئين الاقتداء بهم ومحبة الديار محبة العراف بجمالها المحيط بأسرار تاريخها الخبير بعلل تأخرها وأدواء انحطاطها، وإلا فمحال أ، يبني على غير هذا الأساس مجد صحيح وعز دائم".

هذا ما كتبه مصطفى كامل عن إهمال الأمة تخليد ذكري على باشا مبارك، فليت شعري ماذا هو قائل عن إهمال الأمة تخليد ذكراه هو! لقد أفنى عمره في بعث الحركة الوطنية، وضحى بحياته في سبيل مصر، وذوت زهرة شبابه في فبراير سنة ١٩٠٨، وصنع له تمثال لتخليد ذكراه، فبقى التمثال أربعة وعشرين عامًا سجينًا، تضن عليه الحكومة بإقامته في أحد الميادين العامة والأمة غافلة عن شأنه.

* * *

ثم أفرج عبد لأي عن تمثال الفقيد، واتفق على إقامته في أحد الميادين الكبيرة العامة، فقرر مجلس الوزراء بجلسة أول سبتمبر سنة ١٩٣٨ إقامته في ميدان العتبة الخضراء ثم أقيم التمثال في ميدان (مصطفى كامل) كما تراه مفصلا في الفصل الخامس عشر.

خطبته في افتتاح مدرسة الشوربجي ببريم

(أبريل سنة ١٩٠١)

كان مصطفى كامل مشغوفا بنشر التعليم القومي في البلاد، داعيًا على هذا الغرض عاملا على تحقيقه. اعتبر ذلك في تشجيعه حسين بك القرشوللي على إنشاء مدرسته. وخطبته في افتتاحها، ثم إنشائه مدرسة (مصطفى كامل)، وقد أسس أحد خيار الأعيان بمديرية البحيرة وهو المرحوم مصطفى بك الشوربجي سنة ١٩٠١ مدرسة مجانية في بلدته (بريم) – قائمة حتى اليوم– وأقام احتفالا فخما في بافتتاحها يوم ١٥ إبريل من تلك السنة حضره مدير البحيرة في ذلك الحين (أحمد فايق باشا) وكان من خاصة أنصار الفقيد المعجبين بجهاده وحضرها جمع كبير من الأعيان والكبراء وقد دعي مصطفى كامل إلى حضور الاحتفال فلبى الدعوة، وكان موضع الإجلال والاحترام من الحاضرين، وألقى خطبة من طبه العظيمة عن فضل العلم وأثنى على منشئ المدرسة، ونوه بحضور الناس أفواجًا على هذا الاحتفال إجلالا للعمل وإظهارًا لما في

صدورهم من حب للوطن والميل لخيره، وتكلم عن واجبات الأمة أفردًا وجماعات نحو الوطن، ودعا في خلال الخطبة دعوته الوطنية، وبرهن على أن في الأمة حياة حقيقية واستعدادًا عظيمًا للتقدم إذا وجد من يستحقها على العمل، قال:

" سادتي الأعزاء

"إني بكل ارتياح حضرت على هذا البلد الأمين، وانتقلت من عاصمة الديار على هذه الجهة المباركة لمشاركة القوم في فرحهم واحتفالهم بما يصح أن نسميه "عيد العلم والتربية".

إلى أن قال:

" ليس في تشييد المدارس وإقامة المستشفيات والتنافس في الخيرات النافعة شيء يسر الوطن ويشرح صدره مثل نفي تهمة الموت الأدبي عن المصريين، قال القائلون وردد المرددون""ن المصريين اتفقوا على ألا يتفقوا"، وست هذه الكلمة في الأمة وتناقلها الصغير عن الكبير، وشرحها فلاسفة السوء واعتقد الكثيرون صحتها، حتى أخذ القوم يتساءلون عن مبلغ هذه الأمة من القوة والحياة، يتساءلون هل هي إلى المجد والارتقاء سائرة؛ أم على الموت والحياة والفناء هاوية.

"فأجبهم يا من رفعت للعمل والوطن منارًا عاليًا، أجبهم بأن المصريين اتفقوا على أن يتفقوا، وأن جمعية العروة الوثقى في الإسكندرية، وجمعية المساعي المشكورة في المنوفية، والجمعية الخيرية الإسلامية في أنحاء القطر، تنادي بأن في الأمة رجالا أحياء ذوي همم عالية، وعزائم صادقة، أجبهم بأن هذه المدارس الأهلية التي أنشئت في الديار بهمم الأفراد هي الحجج الدامغة على حياة الأمة ووجود من يهتم لأمر تقدمها ونهضتها.

" لا داء اضرّ بالأمة وأشد وبالا عليها مثل داء اعتقادها السوء في نفسها، ويأسها من مستقبلها، فجاهدوا ضد هذا الداء ما استطعتم، وأعلنوا عليه حربا عوانا، وبثوا في أبناء الأمة مبادئ الثقة بالنفس والاعتماد على المجموع، وربوا البنين والبنات على محبة الوطن".

" الوطن! الوطن! كلمة ترددها الألسنة وتكتبها الصحف، وينطق بها الناس على اختلاف مراتبهم، ويصيح بها كل إنسان، فماذا للفرد الواحد في هذه الكلمة، بل ماذا له في الوطن نفسه؟، له كل شيء، ونصيبه من فخاره عظيم. كما أن مسئوليته في مصائبه كبرى.

"ألا يشعر الواحد بعظمة حقيقية وسمو كبير إذا قال (بلادي) وكانت بلاده عالية المقدار رفيعة الشأن والاعتبار؟ ألا يجد كلمة (بلادي) التصاقًا بالوطن واشتراكا في أفراحه وأحزانه بنصيب كبير؟ ألا تدل هذه الكلمة وحدها على أن كل واحد منا مطالب بنصرة الوطن وإسعاده، مسئول أمام الله وأمام الناس عما يناله من سوء وضر؟

" ألا يكون المصري موضع الإكرام والإجلال بين شعوب الورى إذا قال (مصر بلادي) وكانت مصر مصدر العلم والنور، ومقر التمدن والتقدم، ومثال القوة والعظمة في الحرية والاستقلال؟

"أجل. للصغير كما للكبير من المصريين نصيب في رفعة الوطن أو انحطاطه، فلا يّعينّ أحد منكم أن غيره المسئول دونه عن القيام بخدمة البلاد وإعلاء شأنها "كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته".

في باريس

سافر مصطفى كامل إلى باريس في صيف سنة ١٩٠١، وانتهز الفرصة لرفع صوت مصر في الصحافة الأوروبية، وكانت حادثة فاشودة وما انتهت إليه من تراجع فرنسا وانصرافها عن فتح باب المسالة المصرية قد أوجدت جوًا من اليأس من نجاح مصر في جهادها، فرفع الفقيد صوتها من جديد ليعلن عن أماني قومه ومثابرته على الجهاد. نشرت جريدة (الإكليز) الباريسية في عدد ٢٩ يوليه سنة ١٩٠١ مقالة في هذا الصدد قالت فيها:

" حضر أخيرًا إلى باريس وطني مصري له في بلاده نفوذ عظيم، ألا وهو مصطفى كامل بك صاحب جريدة (اللواء) التي تظهر في القاهرة، وهو مشهور في أوروبا، ويعرف اسمه معرفة أكيدة كل المشتغلين بمسائل مصر، وهو خطيب فصيح اللسان قوي الجنان، طالما جمع صوته الصفوف وارتاح لسماع أقواله الكثيرون من أبناء وطنه وغيرهم، وقد اهتم الإنجليز بالقضاء على هذا الاحتجاج الحيّ ضد احتلالهم مصر، وحاولوا محو تلك الدعوة للاستقلال، ولكنهم لم يفلحوا، ولا مراء في أن هذا الشاب المصري هو من أهم أعلام العالم الإسلامي الذين يهمنا موقفهم، فهو جذاب يستميل محدثيه بسهولة، وآدابه عالية، ويتكلم الفرنسية ببلاغة تامة ورقة سليمة".

وقد سأله محرر الجريدة عن شؤون مصر فأجابه بصراحة عن كل ما سأله، وكان أهم سؤال وجهه إليه المحرر: "هل المصريون يائسون الآن من مستقبل بلادهم بعد حادثة فاشودة؟"

فأجابه– "كلا إننا لم نيأس، ولن نيأس أبدًا من مستقبل الوطن العزيز، فإننا نعلم علم اليقين أن مصر مقبرة للأمم الطاغية، ونعرف أن خط انجلترا فيها سيكون كحظ الدول المتقدمة عليها، ولكننا إذا كنا غير يائسين من مستقبل بلادنا فإننا يائسون كل اليأس من أي تعضيد يأتينا من أوروبا، وأصبحنا نوجه همتنا ونشاطنا لتعليم الأمة وبتربيتها بإنشاء المدارس في أنحائها حيث ينشأ الشباب على اشرف مبادئ الوطنية والشهامة ويتعلمون من الصغر تاريخ العظمة السالفة ويربون على الثقة بالمستقبل والإيمان بأن لبلادهم في الأيام الآتية مستقبلاً باهرًا ومقامًا عالياً".

احتفال مدرسة مصطفى كامل

برئاسة الأمير محمد إبراهيم

(٢٧ فبراير سنة ١٩٠٢)

علت منزلة المترجم في نفوس المصريين لثباته في مجاهدة الاحتلال، وازداد إقبال القراء على اللواء، وبدت هذه المنزلة في الاحتفال الذي أقامه لتوزيع الجوائز على النابغين من مدرسته يوم الخميس ٢٧ فبراير سنة ١٩٠٢، فقد حضر الاحتفال نحو أربعة آلاف مدعو، حتى ضاقت بهم ساحة المدرسة، واجتذبت وطنيته إلى ميدان العمل أميرًا من أمراء الأسرة العلوية، وهو الأمير محمد إبراهيم ليرأس الاحتفال، فكان أول أمير رأس حفلة عملية أقامها زعيم الوطنية، وهذا يدلك على قوة التأثير المعنوي للفقيد، وهذا التأثير من خصائص الزعيم الوطني.

وقد حضر الاحتفال جمع من الشخصيات الكبيرة في المجتمع، نذكر منهم يحي أفندي قاضي قضاة مصر، الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية، الشيخ سليمان البشري شيخ الجامع الأزهر، الشيخ محمد بخيت، حسن باشا عاصم، إسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شوري القوانين، إسماعيل باشا صبري الشاعر المشهور (وكيل وزارة الحقانية). محمود شكري باشا، فيضي باشا، عبد الحميد صادق باشا عبد السلام باشا المويلحي، وغيرهم، وكانت لجنة الشرف التي تولت توزيع الجوائز مؤلفة من الأمير محمد إبراهيم رئيسها، وحسن باشا عاصم ومحمود شكري باشا عضويها.

وقد خطب في الاحتفال على بك فهمي كامل شقيق الفقيد ومدير المدرسة عن اطراد سير التعليم فيها ونجاحها ونوه بالقسم المجاني فيها.

وألقى المترجم خطبة فياضة شكر فيها الأمير محمد إبراهيم والمدعوين على حضور الاحتفال بعبارة بليغة، ثم عرج على دعوته الوطنية يبثها في النفوس، وأشاد بنهضة مصر العلمية منذ أوائل القرن التاسع عشر.

محاربة اليأس والثقة في الأمة

ثم دعا إلى التضامن وتوحيد الكلمة والثقة في الأمة قائلاً: "عجبًا وألف مرة عجبًا! كيف تسيء الظن بنفسها أمة تغلبت على الأيام والحوادث، وقاتلت الليالي وما ولدت، وقاومت تيارات الزمان أجيالا طوالا، وأقفتها وهي في منتهى قوتها، وكيف يقول بعض أبناء هذه الأمة عنها إنها ماتت وزالت آثارها وأصبحت نسيًا منسيًا، وهي التي اهتز لمجدها الشرق والغرب وسارت الركبان

بأحاديث مفاخرها؟ كيف يقضي اليائسون عليها وقد كانت قبل عهد محمد على أكثر أدواء وأقل أملا في الشفاء من الآن ثم عادت لها الحياة والقوة والجاه والعز ورفعة الشأن".

الثقافة الوطنية

"ليست حاجة مصر إلى شيء في هذا الزمان مثل حاجتها إلى تخريج رجال متحدي الكلمة، مثقفي الرأي، عارفين بتاريخها، معتبرين بعبر حوادثها، ناهضين بها مجدين في سبيل إسعادها، وليس لنا بإنشاء هذه المدرسة غاية غيره هذه، فإنما نحن لا نرمي إلى تربية موظفين أو إعداد طلاب للشهادات، وإن كان يسرنا على الدوام فوز التلاميذ بين أقرانهم المتعلمين في المدارس الأخرى في الامتحانات العامة، ولكننا نرمي إلى تخرجي رجال خلائقهم محبة الوطن والتمسك بالفضيلة والارتباط بعضهم ببعض والتفاني في خدمة هذه البلاد، نرمي إلى تكوين نفوس عالية تأبى الضيم والذل وتهوى الشرف والمجد، وترى الحياة بغير عز الأوطان وسعدها حياة شقاء وبلاء".

ثم دعا إلى إحياء اللغة العربية لنشر الثقافة وإحياء الآداب وتقدم الأفكار، وضرب الأمثلة بنهضة اللغة القومية في بلاد المجر إذ كانت أداة للنهضة الوطنية فيها وكانت خطبته تقاطع فيم معظم عباراتها بتصفيق الاستحسان.

obeikandl.com

الأمير محمد إبراهيم

obeikandl.com

خطبة الأمير محمد إبراهيم

ونهض الأمير محمد إبراهيم، وألقى بلغة عربية فصيحة خطبة قيمة موجزة كان لها تأثير كبير في الحاضرين، قال فيها:

"أيها السادة الكرام:

"يسرني أن أراكم مجتمعين في هذا النادي، نادي العلم والأدب، فرحين بنجاح أبنائكم نجاحًا يبشر بحسن مستقبلهم وفوز النابغين منهم بالجوائز التي أعدتها لهم المدرسة، وقد زرت هذه المدرسة منذ عامين، وقضيت فيها زمنًا تأكدت فيه أن القائمين بأمرها والمدرسين لتلاميذها يقومون بواجباتهم حق قيام، ولذلك تعلقت بها وبمن فيها، وما سمعت بهذا الاحتفال إلا وأتيت إليه مسرورًا مرتاحًا.

"وإنكم تعلمون جميعًا أن مصر كانت شمسًا تضيء للعالمين، ومنبعًا غزيرًا للعلوم والمعارف، ومنبتًا للفضائل ومكارم الأخلاق، ثم قضى الجهل على ذلك كله حتى تولى ملك مصر مولانا العباس الثاني، وعمت روح العلوم أنحاء البلاد وأخذ الجهل يتقلص عن هذه الديار العزيزة.

"وإني مسرور جدًا بحضور هذا الاحتفال واشتراكي معكم في هذا العمل الجليل، وآمل أن هذه المدرسة تكون قدوة لكل راغب في بلوغ المراقي السامية وأشكر سعادة مصطفى كامل بك لكونه دعاني لرئاسة هذا المحفل، وأسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى ما فيه الفائدة تحت رعاية أكبر نصير للعلوم والمعارف مولانا ولي النعم الأفخم الخديو المعظم".

وقد كانت هذه الحفلة وما حفها من المهابة والجلال، ورياسة أمير من الأسرة العلوية لها، وخطبته، وخطبة الفقيد فيها، وحضور جمع كبير من أعلام مصر وأقطابها، كل أولئك كان مظهرًا واضحًا بارزًا للمكانة العالية التي بلغها مصطفى كامل بين الطبقة الممتازة من المجتمع، وهذه المكانة كانت فوزًا له وفوزًا للحركة الوطنية التي صارت مرادفة لاسمه.

الاحتفال بالعيد المئيني لمحمد علي (٢١ مايو سنة ١٩٠٢)

اقترح المترجم على صفحات اللواء إقامة احتفال كبير يوم ١٣ صفر سنة ١٣٢٠هـ (٢١ مايو سنة ١٩٠٢) تذكارا لمرور مائة عام هجري على اختيار الشعب محمد علي واليًا على مصر، قال في هذا الصدد تحت عنوان (العيد المئيني لمؤسسة العائلة الخديوية):

"خير الأعياد عند الأمم عيد يذكرها بانتقالها من الظلمات إلى النور، وخروجها من الجهالة إلى العلم والحضارة، وارتقائها في سبيل الحياة العالية، وارتباطها بعائلة مالكة أجلستها على العرش بإرادتها وصافحتها للنهوض على ذرى العليا ونوال المنن والنعماء، واعتمدت عليها في إرشادها إلى واجباتها وحقوقها والمقاصد السامية التي يجب أن ترمي إليها".

وبعد أن أشاد بتاريخ محمد علي وما قام به من جلائل الأعمال في سبيل إنهاض مصر، دعا إلى الاحتفال بالعيد المئيني لولايته قائلاً: وهذا التذكار السامي يوافق ميعاده يوم ١٣ صفر سنة ١٣٢٠، أي لم يبق على حلوله إلا خمسة عشر شهرًا [1]، فليفكر المفكرون فيما يجب على هذه الأمة عمله اعترافا بفصل محبيها. وإجلالاً للوطن نفسه، الذي نهض في عهده نهضته الكبرى، ووثب بين الأوطان وثبة الأسد القاهر، فخير ما يحي الوطنية في النفوس ويجمع جموع هذا الشعب العظيم الأسيف ذكرى العظمة الأهلية والمجد الوطني، ولمثل هذا فليعمل العاملون ويتنافس المتنافسون".

وفي الحق إن ابتكار الفقيد هذه الفكرة يدل على وطنية عالية ونظر صادق وفكر ناضج، لأن خير ما يحفز الأمم إلى الجهاد في سبيل استقلالها المسلوب هو الاحتفال بذكريات مجدها وعظمتها ففي تلك الذكريات تقارن بين ماضيها وحاضرها وتدرك الفرق بينهما، فتضاعف عزيمتها في الجهاد للتخلص من حاضرها المهين، واستعادة مجدها التليد، فلا غرو أن قوبل الاقتراح بالارتياح من الوطنيين، كما قابله صنائع الاحتلال بالحقد والسخط لأن هذا الاحتفال هو في حقيقته مظاهرة تاريخية ضد الاحتلال، وقد تردد صدى الاقتراح في الصحف الأوروبية المحلية فكتبت عند (الريفورم) مقالاً جاء فيه:

"لقد اقترح رصيفنا وصديقنا مصطفى كامل بك في جريدته (اللواء) اقتراحا نوافقه عليه كل الموافقة، وهو إقامة احتفال عظيم بتذكار مرور مائة عام على انتاب أعيان المصريين لرجل العظيم واليًا على مصر، وأن محمد علي هو مؤسس العائلة الحاكمة في مصر، ومنشئ مصر

---

(١) كتبت المقالة في عدد ١٣ شوال سنة ١٣١٨ – ٣ فبراير سنة ١٩٠١.

الحديثة نفسها، وقد أظهر مصطفى كامل في مقالته الجميلة العمل الكبير الذي قام به هذا الرجل العظيم وكيف أنه أنقذ هذه البلاد من الفوضى التي كانت تمزقها وأقام فيها نظاما محكما حتى صارت مصر في عهده من القوة والعظمة بمكان".

وقد نجحت الفكرة نجاحًا رائعًا، وألقى مصطفى كامل بمسرح زيزنيا بالإسكندرية خطبة كبرى يوم ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ (١٣ صفر سنة ١٣٢٠) وهو يوم التذكار المئيني لولاية محمد علي، موضوعها (عمل محمد على وواجبات المصريين نحو وطنهم)، ضمّمها ما عمله محمد علي لإحياء مصر، وقارن بين مجدها في عهده، وما صارت إليه من الذل والمهانة في عهد الاحتلال، وناشد المصريين أن يهبوا لإحياء مجد مصر واستقلالها ودستورها، وقد كان الإقبال على سماع الخطيب عظيما، إذ حضر الاجتماع ثلاثة آلاف ونيف من وجوه البلاد وأعيانها وفضلائها وموظفيها وشبابها وهرع إليه كثيرون من مختلف الأقاليم حتى من أسوان، وقوبلت الخطبة في معظم مواضعها بالتصفيق والاستحسان، وبخاصة عندما ذكر الخطيب ضرورة إنشاء مجلس نيابي لمراقبة أعمال الحكومة وتقييد أعمالها، فكانت دعوة الفقيد إلى مجلس النيابي في هذا الاحتفال الكبير أكبر دعاية للدستور، والخطبة طويلة ممتعة لا سبيل على إيرادها أو تلخيصها هنا [1]، وهي خلاصة تاريخية جليلة لأعمال محمد علي، تتخللها استثارة النخوة الوطنية في النفوس، وإنا نكتفي ببعض فقرات منها كنموذج لروح الخطابة وغرض الخطيب قال:

"من ذا الذي يذكر منا مجد مصر في عهد ذلك الأمير، ولا يذكر أنه مسئول عن زواله مطالب باسترداده".

وقال في موطن آخر:

"بأي قلب أم بأي ضمير أم بأي لسان أحدثكم اليوم معاشر المصريين عن حماية آبائنا للوطن ودفاعهم عنه ونضالهم عن حوزته أيام (محمد علي الكبير). وقد حاولت انجلترا أن تقضي على هذا الملك الجديد. وهذه الدولة الناشئة، وتزيل من سماء المجد والإقبال هذه الشمس المشرقة، فأراها يومئذ بنو مصر أي أمة هم. وأراهم محمد علي أي أمير هو. فتركت الثغور والبلاد آسفة على فشلها، معجبة بهذا المجد الباهر والعزم القاهرة والوطنية الحقة والهمة الحديدية".

وقال أيضًا مشيرًا إلى حالة اليابان حين نهضت مصر في عهد محمد علي: "أين كانت اليابان يومئذ؟ أين كانت هذه المملكة الناشئة؟ كانت في دياجي الظلمات وغياهب الجهل. تعد

---

(١) نشرنا معظمها في الفصل الثاني والعشرين.

إذا ذكرت في عداد الأموات، فقف أيها المصري فوق أطلال التاريخ وارقب الحوادث، وأنظر على أي حال صارت اليابان، وإلى أي حال صرنا، وماذا كنا نبلغ من الشأن والشأو لو سلكنا ذلك السبيل الذي وجهنا إليه محمد علي الكبير".

وصف الخطبة وتأثيرها

كانت هذه الخطبة من أعظم خطب مصطفى كامل، لجلال موضوعها وقد أحدثت في النفوس تأثيرًا كبيرًا تردد صداه في أرجاء البلاد وفي الدوائر الأوروبية، وكانت من أعظم دروس الوطنية التي ألقاها الفقيد في خطبه الكبرى، ويبدو عظم تأثيرها مما كتبته الصحف في وصفها وما احتوى الوصف من إجلال للخطبة والخطيب.

كتب الشاعر الكبير خليل بك مطران أن يصف الاحتفال في "الأهرام" [1] بقوله:

"أكتب إليكم هذه السطور من موضع مشرف على البحر، مجاور له، أسمع منه مناداة حبابه، ومناجاة نسماته، وأرى من حركته الدائمة المستمرة ما يخيل لي أن على ظهر كل موجة مهدا، يهز صعدا وخببا، وأن في المهد أمرًا طفلا، سيكون بعد حين أمرا كهلا، فهل ذلك الأمر الذي تهزه الأمواج، وتغذيه الشمس وتنميه الليالي، سيكون أمنية مرجوة لمصر تتحقق؟ وهل المناداة والمناجاة اللتان أسمعهما أول أصوات البشرى التي ستعلو بعد حين؟ ذلك ما أوهمتني إياه خطبة مصطفى بك كامل التي سمعتها البارحة بين جمهور لا يقل عن ثلاثة آلاف نفس مختلفي الجنس والدي،، وأكثرهم من المصريين، وغير قليل منهم الذين حضروا من القاهرة والريف.

"وقف يتكلم في الساعة التاسعة، وقد ضاق النادي على اتساعه بالناس عشرات عشرات في اللوجات، جلوسًا ووقوفا على الكراسي، وفيما بينها، صامتين تشوقا إلى ما سيسمعون، منتظمين انتظاما طبيعيًا، ليس من عمل شرطي ولا ترتيب بواب، بل من هيبة الموقف ورجاء ما يتوقع".

وبعد أن أتى على ملخص الخطبة ختم رسالته بقوله:

"ولما فرغ الخطيب من التكلم صفق الناس حتى كلت الأيدي، وخرجوا معجبين باقتداره وسعة صدره وشدة إخلاصه، معتبرين بما سمعوه من مؤثر العظات أعظم الاعتبار، وأحاط بالخطيب جمهور من الأصدقاء فهنأوه أحسن تهنئة، ولا غرو فإنه مصر الحي ولسان ضميرها المجاهر".

---

(١) عدد ٢٤ مايو سنة ١٩٠٢.

وقالت جريدة (البصير):

" كان أمس موعد الخطابة التي ألقاها في تياترو زيزنيا حضرة الخطيب المفوه رصيفنا الفاضل سعادة مصطفى بك كامل صاحب اللواء الأغر، فكان الملعب غاصا بالحضور؛ وما ساءنا انشغال المكان المعد لنا بقدر ما سرنا ما رأيناه من الزحام الدال على إعجاب المصريين بالخطيب وتشوقهم إلى سماع خطبته الوطنية، فكان يندفع اندفاع السيل بما عرف به من طلاقة اللسان، ويذكر من أعمال مؤسس البيت الخديوي الكريم وواجبات المصريين نحو وطنهم ما يثير الهمم في النفوس الخامدة، ويبعث روح الحياة على المشاعر الميتة، مذكرا المصريين أن كل أمة لا تعتمد على نفسها ولا تثق بمجموعتها فلا رجاء لها ولا تبلغ ما تبلغه الأمم المتمدنة في سبيل الحضارة والعمران، ثم أشار إلى الفرق بين مصر اليوم وبينها في عهد محمد علي، فأحاط بجميع أطراف هذه الموضوع بكلام كان غاية في البلاغة ورشاقة التعبير، حتى دوت جوانب المرسح بالتصفيق، وتساقطت على الخطب طاقات الزهر بالعشرات، وفي الجملة فإن الخطاب كان بديعًا من أكثر وجوهه، لو لم يرد فيه من التحامل على المحتلين وكبار رجال الحكومة ما نشارك في الانتقاد عليه فريقًا ممن كان حاضرًا من العقلاء، لاسيما وأن الموقف لم يكن يحمل مثل هذه الأبحاث، وفي كل حال فإننا نثني على حضرة الخطيب، وعلى ما رأينا من علائم الوطنية الصادقة التي كانت تبدو بين ثنايا الحضور".

وتردد صدى الخطبة في الصحف الأوروبية، ووصفت الخطبة ونوهت بالمنزلة السامية التي نالها الفقيد في اقتياد الحركة الوطنية.

قالت جريدة (الفارد الكسندري) تحت عنوان (مصر للمصريين) ما يأتي.

" لخصنا في عدد أمس الخطبة التي ألقاها أول البارحة بكل اقتدار ونجاح حضرة رصيفنا الفاضل مصطفى بكل كامل، وقد أبنا النجاح الذي ناله الخطيب الذي لم يكن ليشك فيه أحد لأن صاحب (اللواء) الوطن الشاب اعتاد مثل هذا النجاح الخطابي الباهر، ولكن ما منعنا ضيق الصحيفة عن ذكره البارحة والذي يجب علينا أن نقوله اليوم هو أن الجمهور العديد الذي حضر خطبة مصطفى بك كامل أظهر من العواطف والميول ما يعد استثنائيا بالنسبة لجمهوري مصري.

"فإن الناس كانوا يعتقدون قبلا أن السواد الأعظم من المصريين لا يعرفون لكلمة (الوطنية) معنى، وأن هذا الاعتقاد الذي كان أصحابه غير مخطئين فيه صار لا محل له الآن، لأنه كان يكفي للإنسان أن يرى أول البارحة تيار الوطنية الشديد الذي كان يخترق القاعة ويمر بين كل الصفوف ويشاهد التأثير القوي البادي على الوجوه كلما كان الخطيب يلقى عبارة وطنية ليعتقد أن

المصريين يعرفون معنى الوطن والوطنية، فأبناء مصر يظهرون الآن بمظهر الرجال العارفين لحقوقهم وواجباتهم وإخلاصهم نحو الوطن، ولسنا بمبالغين إذا قلنا أن للخطيب الشاب الذي صفق له الجمهور أي تصفيق يدًا قوية في تغيير الميول المصرية وترقية العاطفة الوطنية،، فإن مصطفى بك كامل قام يجاهد بالرغم عن شبابه الغض نحو عشر سنوات لمصلحة وطنه، واستخدم القلم واللسان والتعليم لهذا الغرض الشريف، فهو يربي العاطفة الوطنية في جريدته، ويلقي الخطب عن الوطن وحقوقه، ويعلم في المدرسة التي أنشأها منذ ثلاث سنوات ٢٧٠ تلميذًا، فهو يعمل بهذه الأسلحة الثلاثة لإحياء الروح المصرية".

وكتبت بهذه المعنى جريدة (الريفورم).

ووصفت جريدة (الكوريري اجبسياني) افيطالية الخطبة بقولها:

"ازدحم الناس ازدحامًا غريبًا على تياترو (زيزنيا) حتى لم يبق مكان لجالس ولا محل لواقف، وما خرج مصطفى بك كامل إلى منبر الخطاب حتى حياه هذا الجمهور الاستثنائي العدد بالتصفيق المستمر، وقد ألقي الخطيب خطبته بقوة جنان وثبات واقتدار، وكانت الوطنية بادية في كل أقواله وإشاراته، والحمية ظاهرة على وجهه، وتأثير خطابته واصل على أعماق القلوب، وإن النجاح الذي ناله عظيم، ولا مراء في أنه يستحقه".

ولم يفت جريدة (الاجبشيان جازيت) الإنجليزية التي تعبر عن الاحتلال أن تنوه بجلال الاحتفال مع التحفظ في الوصف، إذ قالت.

"ألقى مصطفى بك كامل خطبته البارحة على عمل محمد علي في تياترو زيزنيا، فازدحم المصريون لسماعها، وبعد أن أثنى الخطيب على الباش الكبير تكلم في الاحتلال البريطاني وذكر الموافقة بين تاريخي جلاء الإنجليز عن الإسكندرية في ١٤ سبتمبر عام ١٨٠٧ ودخوله مصر في ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢، وطلب من الحاضرين مساعدته على إخراجهم بالثاني".

دعوته إلى الدستور

كان مصطفى مع دعوته إلى الجلاء لا يفتأ يدعو إلى الدستور ليكون أداة الحكم الصالح في مصر، كتب في عدد ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠ من (اللواء) مقالة بعنوان (الحكومة والأمة في مصر) ذكر فيها وعد اللورد دفرين باسم حكومته أن يسس في مصر مجلس نيابي وإخلاف الحكومة البريطانية هذا الوعد كإخلافها وعودها في الجلاء، ثم قال.

"لعمري إذا كان الإنجليزي يودون حقيقة أن يعيشوا مع هذا الشعب المصري في وفاق واتفاق ويسيروا به في طريق السعادة كما يدعون، فأول واجب نطالبهم به هو أن يحققوا وعد اللورد دفرين ويجعلوا للحرية والعدالة أساسات قوية متينة لا تستطيع يد بشرية، إنجليزية أو مصرية، أن تمسها بسوء".

وقد دعا إلى الدستور في خطبته في العيد المئيني لمحمد علي يوم (٢١ مايو سنة ١٩٠٢) كما تقدم بيانه، وكان على صفحات اللواء يدعو إلى المجلس النيابي كأداة لإصلاح عيوب الحكم، كتب في عدد ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٢ مقالة تحت عنوان (إفلاس الاحتلال) أظهر فيها فساد الأداة الحكومة في المعارف والداخلية وختمها بقوله:

"وعندي أن هذه الأدوار المختلفة والدواء المتنوعة دالة كلها على شدة حاجة هذه البلاد إلى مجلس نيابي تكون له السلطة التشريعية الكبرى، فلا يسن قانون بغير إرادته، ولا تحور مادة إلا بمشيئته ولا يزعزع نظام بغير أمره، ولا تعلو كلمة على كلمته، وإلا فإن بقاء السلطة المطلقة في يد رجل واحد سواء كان مصريًا أو أجنبيًا يضر بالبلاد كثيرًا ويجر عليها الوبال".

وكتب تحت عنوان (إنشاء مجلس نيابي) في عدد ٩ مارس سنة ١٩٠٤ من اللواء ما يأتي:

"لعل قراء اللواء وغيرهم من أفراد الأمة المصرية يذكرون ما قلناه من فوق المنابر وكتبناه في هذه الجريدة وغيرها عن وجوب إنشاء مجلس نيابي منذ عشر سنوات كاملات، ويسرهم كما سرنا أن هذا المطلب العزيز صار على ألسنة الكثيرين من أهل القطر، لأنه الأنشودة التي يجب أن يترنم بها المصريون بعد طلب الاستقلال، وسواء كان سابقا أو لاحقا لتخلص البلاد من رق الاحتلال، فإنه الضمانة الوحيدة والكفالة الصحيحة لسلامة القوانين والحرية الخاصة والعامة، إلى أن قال:

" ليس للاحتلال مصلحة في إيجاد مجلس نيابي لهذه البلاد، ولكن صوت الأمة يعلو على صوته إذا تمسكت به ودعت إليه وطالبت وجاهدت بقوة الرأي والفكر والثبات التي هي أكبر القوى الفعالة في حياة الأمم، فلتفعل فإنما هي تخطو بالوصول إليه أكبر خطوة في طريق الاستقلال".

مجيء مدام آدم إلى مصر

(يناير سنة ١٩٠٤)

رغب مصطفى كامل إلى مدام جولييت آدم المجيء إلى لمصر ليوطد علاقة الود والحب بينها وبين الوطن المصري، فلبت الدعوة وجاءت في يناير سنة ١٩٠٤، واستقبلها استقبالا حافلا، وقد استضافها عمر بك سلطان (باشا) بالمنيا، وصحبها الفقيد في هذه الرحلة ومعها الأمير حيدر فاضل لمشاهد آثار بني حسن، وذهبوا إلى أسيوط حيث استقبلهم حسين بك فهمي المحامي وأحمد بك خشبه والسيد كامل بك خشبه، وذهبوا إلى البلينا، حيث تناولوا الشاي بمنزل عبد اللطيف بك أبو ستيت ثم إلى الأقصر حيث استقبلهم بالحفاوة عبد الكريم بك العماري ويسي بك اندراوس، وشاهدوا الآثار المصرية، وذهبوا إلى إسنا، فتناولوا الشاي بمنزل متولي بك حزين، ومدني أفندي حزين، ووصلوا في رحلتهم إلى أسوان، فكانوا يقابلون في كل مكان بالحفاوة والإكرام. وقد حضرت احتفال توزيع الجوائز في مدرسة مصطفى كامل يوم ١٩ فبراير سنة ١٩٠٤، وكان احتفالا فخما حضره من شخصيات مصر البارزة يحي أفندي قاضي القضاة والشيخ محمد بخيت، والسيد عمر مكرم. وحسين باشا واصف، واللواء بليغ باشا، ودانينوس باشا، وحضرت مدام آدم تصحبها مدام يونج زميلتها في السفر وبعض كبار الأوروبيين، وألقى مصطفى كامل في هذا الاحتفال خطبة من خطبه الرنانة ضمنها وجوب تعليم النشء تاريخ بلاده والعناية بالتربية والأخلاق في المدارس.

وقصدت الفيوم في أواخر فبراير، يصحبها مصطفى كامل ومحمد فريد ومدام يونج والكنتس دي كولتور ودانينوس باشا ونزلوا ضويفا على خالد باشا لطفي، وقد رحب بها الفقيد ترحيبًا عظيمًا، وكتب عنها مقالة بعنوان (ضيفة مصر) بعدد ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤، نوه فيها بشخصيتها الكبيرة، قال:

"زارت مصر في هذه الأيام أميرة من أكبر أميرات الرأي والقلم والسياسة، ألا وهي مدم جولييت آدم الكاتبة الفرنسية الطائرة الصيت، زارت مصر وقد عشقتها من قديم، وشغفت بها من عهد شبابها، ودافعت عنها بقلمها السيال السنوات الطوال، فلذلك حق لمصر أن ترحب هبا، وللمصريين أن يقابلوها بالشكر والإعظام، أتمت ضيفتنا العزيزة في شهر أكتوبر الماضي (١٩٠٣) السنة السابعة والستين من عمرها، ومضى عليها خمسون عامًا وهي الكوكب الساطع في سماء الأدب الرائع، ونشرت إلى اليوم اثنين وعشرين مؤلفا من أرقى المؤلفات واسماها وقد نفدت كلها لكثرة الراغبين في مطالعتها والمعجبين بها".

إلى أن قال:

"منحها الخالق كل ما يجروه الإنسان في حياته، من مال وجلال وعلم وأدب، وسمعة طائرة، ونفوذ كبير، وقد استخدمت كل هذه المواهب في خدمة وطنها، فهو قبلتها، وفي سبيله تضحي كل مرتخص وغال، لم أر في رحلاتي العديدة ومقابلاتي الكثيرة شخصًا أحب وطنه بهذا المقدار، ولم أجد ثباتًا في الحب كثباتها في حب بلادها، وتفانيا في الخدمة كتفانيها، وأملا قويا في المستقبل كأملها، ملأ اليأس قولب الكثيرين من الفرنسيين من رجوع الأزاس واللورين لفرنسا، وبقيت هي قوية الآمال، لا تعرف اليأس ولا اليأس يعرفها، وهكذا الوطنية الحقة تجعل الفؤاد راسخًا لا يتزعزع، والعقيدة أقوى من الأطواد، كان لضيفتنا الكريمة الشأن الأعلى والدور المهم في تأسيس الجمهورية الفرنسية والتحالف الفرنسي الروسي، وكم تقررت أمور خطيرة في دارها، لأن كبار الجمهورية وفي مقدمتهم "جمبتا" كانوا يسترشدون بأفكارها، ويعترفون بأنها صائبة الرأي، لا تخطئ المرمى، وذلك فضلا عما كان لمزوجها المأسوف عليه، "إدمون آدم" من المقام العالي والكلمة المسموعة والخدمات الباهرة، ولولا ثروته الواسعة لما افلح الحزب الجمهوري في ظروف كثيرة، أحبت مدام آدم بلادها، فأحبت كل محب لبلاده، وعرفت الوطنية الراقية، فأجلّتها عند كل وطني. ولذلك تجد اسمها محبوبا عند المم الناشئة المحتاجة على المرشد والمعضد، تجد دارها في باريس مزدحمة بالقصاد من أنحاء العالم. كلهم يطلبون منها الإرشاد، ويقدمون لها فرائض الشكر والإعجاب، اعتقدت أن الحق قاهر مهما قُهر في بادئ الأمر، وأنه ذو الكلمة الأخيرة في كل قضية، فأبعدت القنوط عن نفسها وعمن حولها، كم سمعتُها تبث الآمال في قلوب محبيها الكثيرين بأقوالها الصادقة وعباراتها المؤثرة، فمثل هذه الضيفة العزيزة من تكرم الدنيا ويعز بنو الإنسان، وإذا كان أكبر صفات المصريين إكرام الضيف وعدم نسيان المعروف، فلا بدع إذا رأيناهم يتسابقون لإكرامها وإعلان شكرهم لها على حبها لبلادهم ودفاعها عنهم، فإنما هم يثبتون بهذه المظاهرات الودية أنها لم تخطئ في قولها واعتقادها أن المصريين أحياء وأنهم سيبهرون العالم بحياتهم ومستقبلهم في القريب العاجل".

وقد أولم الخديو عباس الثاني لمدام آدم وليمة عشاء فاخرة في قصر القبة مساء ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤، حضرها ستة عشر مدعوا من الأمراء والكبراء، وتناول معا الخديو هو وضيوفه كعام العشاء تكريما للضيفة العظيمة.

وذهبت صحبة مدام يونج والمترجم وحسين باشا واصف على بورسعيد، فأقيمت لهم حفلة فخمة في المدرسة الواصفية، خطب فيها الفقيد خطبة شيقة، وكان المجتمعون يبلغون عدة آلاف جاءوا تكريمًا لضيفة مصطفى كامل.

وغادرت مصر يوم ٤ مارس سنة ١٩٠٤، بعد أن أقامت في مصر ستة أسابيع رأت فيها من الفقيد وأنصاره من الأمة المصرية غاية الحفاوة والإكرام، وشاهدت مظاهر الحركة الوطنية التي بعثها مصطفى كامل، وقد تأثرت مما لقيته في مصر من الحفاوة، وما شاهدته من عظمة آثارها القديمة، وكتبت في جريدة (الجولوا) الفرنسية مقالة عن الأثر الأول مشاهداتها قالت فيها:

" إن أرض مصر تضم كل المدنيات السابقة، وسماء مصر هي أمل سماء مزقت فيها السحب حيث سمح بذلك للإنسان أن يشعر بوجود الخالق، ولم يعهد التاريخ أمة بلغت من القوة والعظمة ما بلغته الأمة المصرية حتى صبغت العناصر الأخرى بصبغتها، وبقيت في آن واحد في حالة الفطرة الأولى، مالكة نفسها على مر الزمان، ولم يتحكم الأجنبي في أمة كما تحكم فيها، ولم تتخلص أمة من الأجنبي بصورة مستمر كما تخلصت هي، وإن استرداد مصر لنفسها أمر تكرر على حد أنه صار قانونا في تاريخها، وإنه ليمكن للإنسان أن يؤكد أن مصر ستبقى إلى الأبد مصر".

الإنعام على الفقيد بالباشوية

أنعم السلطان على الفقيد برتبة الباشوية في مارس سنة ١٩٠٤، فصار يعرف بمصطفى كامل باشا، وقد كان لهذا الإنعام رنة فرح كبيرة في الأوساط الوطنية وزادت مكانته رفعة وعلوّا لما للقب الباشوية من التأثير في نفوس العامة والخاصة في بلادنا.

* * *

الفصل العاشر

الاتفاق الودي بين فرنسا وانجلترا

(٨ أبريل سنة ١٩٠٤)

obeikandl.com

وقع في سنة ١٩٠٤ حادث سياسي خطير كان له سوأ الأثر في اتجاه المسألة المصرية، وان بمثابة صدمة شديدة للحركة الوطنية، ونعنى به العهد المعروف "بالاتفاق الودي" المبرم بين فرنسا وانجلترا في ٨ إبريل سنة ١٩٠٤.

كانت العلاقات بين الدولتين تزداد جفاء على اثر انسحاب فرنسا من فاشودة، فرأي بعض رجال السياسة في كلتا الدولتين أن يسعوا في إزالة أوجه الخلاف بينهما، لكي تقاوما نفوذ ألمانيا الآخذ في الازدياد في أوروبا والعالم، والذي كان يهدد مصالح الدولتين، وكان للملك ادوارد السابع التي تولى عرش انجلترا سنة ١٩٠١ دخل كبير في توجيه هذه السياسة، لما كان يشعر به من الميول نحو فرنسا، واعتبرت زيارته لباريس سنة ١٩٠٣ فاتحة عهد الاتفاق بين الدولتين، وأخذت الحكومتان في تسوية المسائل المختلف عليها بينهما، وأسفرت مفاوضاتهما عن إبرام "الاتفاق الودي" بينهما في ٨ إبريل سنة ١٩٠٤، وصار هذا الاتفاق عاملا مهما في اتجاه السياسة الدولية، إذ كان تكملة للمحالفة بين فرنسا وروسيا لمقاومة التحالف الثلاثي بين ألمانيا والنمسا وإيطاليا.

وكان الجزء الخاص بمصر هو أهم نصوص هذا الاتفاق. فقد أعلنت انجلترا في المادة الأولى منه بأنه "ليس في نيتها تغير الحالة السياسية في مصر" وتعهدت الحكومة الفرنسية من جانبها "بأن لا تعرق عمل انجلترا في هذه البلاد لا بطلب تحديد أجل للاحتلال البريطاني ولا بأي صورة أخرى". وهذا الالتزام من جانب الحكومة الفرنسية مقابل التزام الحكومة البريطانية أن لا تعرقل عمل فرنسا في مراكش، وتعهدت الحكومة الفرنسية بأن توافق على مشروع الدكريتو الخديوي المرافق للاتفاق والمحتوي على الضمانات التي رؤيت ضرورية لصيانة مصالح حملة أسهم الدين المصري. وأهم هذه الضمانات ضرائب الأطيان لخدمة الدين العام بدلا من الإيرادات المختلفة التي كانت مخصصة لها من قبل وهي السكك الحديدية والتلغرافات وميناء الإسكندرية والجمارك وأربع مديريات، وتعهد الحكومة المصرية بعدم تخفيض ضرائب الأطيان على مادون أربعة ملايين جنيه في السنة إلا بعد موافقة الدول. وفي مقابل ذلك ترك للحكومة المصرية المال الاحتياطي المتوفر في صندوق الدين وقدره خمسة ملايين جنيه ونصف تتصرف فيه كما تشاء، واتفقت الدولتان على بقاء إدارة الآثار المصرية بمسندة على عالم فرنسي، وتتمتع المدارس الفرنسية في مصر بنفس الحرية التي تمتعت بها في الماضي، وصرحت الحكومة البريطانية في الاتفاق بأنها تستعمل نفوذها لكي لا تكون حالة الموظفين الفرنسيين الموجودين في خدمة الحكومة المصرية دون حالة الموظفين الانجليز بها ومعنى هذا الاتفاق إقرار فرنسا للاحتلال البريطاني في مصر، وعدولها عن مطالبتها بالجلاء، وتبدو من ثنايا نصوصه وعباراته روح

الحماية التي انتحلتها انجلترا على مصر، لأنها تعاقدت عنها وعن شئونها المهمة دون دخل لها، واتفقت عليها دون رضاها أو علمها، وهذا من أخص امتيازات الدولة الحامية.

تأثير الاتفاق على مصر

كان هذا الاتفاق من المؤامرات الاستعمارية التي اتفقت عليها الدول الأوروبية لسلت الأمم واغتصاب استقلالها وحقوقها، وكان منت نتائجه أن قوى مركز انجلترا في مصر، وظهر تقرير اللورد كرومر في إبريل سنة ١٩٠٤، فبدت فيه روح السيطرة، وتكلم فيه بلسان الحاكم المطلق التصرف، وطعن في المصريين بأن رماهم بعدم الكفاية للحكم الذاتي، وكان من نتائجه المعنوية أن رجح في نفوس الخاصة كفة اليأس، فتفشت فيهم نزعة الضعف والتخاذل والنفعية، والانصراف عن متابعة الحركة الوطنية، إذ رأوها تتعثر في طريقها ولا تصادف نجاحها، ورأي أكثرهم أن الخير لهم في الانضواء تحت لواء الاحتلال، فجنحوا لسياسة الخضوع والاستسلام وتملق الانجليز، وابتغاء الزلفى لديهم، وسرت هذه الروح الهادمة للحركة الوطنية من صفوف الخاصة إلى طبقات العامة.

أثر الاتفاق في نفس المترجم

أما مصطفى كامل فلم يتراجع أمام الاتفاق، ولم يتزعزع يقينه في الجهاد، لأنه كان قد نفض يده عن مساعدة فرنسا منذ حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨، تلك الحادثة التي أدت على انسحاب فرنسا فعلاً أمام انجلترا وتركها تفعل ما تشاء في وادي النيل، وما كان اتفاق سنة ١٩٠٤ إلا توكيدًا رسميًا لما سارت عليه فرنسا فعلا بعد حادثة فاشودة، فلا غرو أن قابل الفقيد هذا الاتفاق بالثبات والجلد، ومضى جهاده لا يلوي على شيء، وقد كان الحادث السياسي امتحانًا جديدًا لعقيدته وثباته، فبرهن على أن وطنيته راسخة كالطود، ثابتة كالجبال، وبلغ بذلك قمة الوطنية الصادقة، واستثار في النفوس من جديد روح الأمل والجهاد.

كتب في هذا الصدد [1] يقول مخاطبًا المصري:

"أنظر إلى الشعوب التي قد أصابها ما أصاب شعبك، تجد البولوني وقد مزق وطنه وعلت فيه كلمة دول ثلاث، يجد ويعمل مفكرًا كل يوم بل كل لحظة في بولونيا، يذكر تاريخها ويبكي أيامها الخالية، ويربي ابنه على حبها والتمسك بحقوقها، والفنلندي وقد لبس هو وبقية أفراد أمته ثياب الحداد يوم قررت الروسيا ضم جيش فنلندا لجيشها ومحو بقية استقلال هذه الأمة،

---

(١) اللواء عدد ١٨ إبريل سنة ١٩٠٤.

والأيرلندي وقد عارض انجلترا في ضغطها على بلاده، وسلبها لحقوقه؛ واستمر يعارض ويجاهد حتى حملها على تجريد اللوردات من أملاكهم بثمن بخس ورد الأراضي الايرلندية إلى أصحابها الأصليين، وأنظر إلى غيرهم وغيرهم، لتعلم أن الأمم كبيرة كانت أو صغيرة، حاكمة أو محكومة، لا تسمو فيها الأخلاق والصفات ولا ينشأ بينها رجال الفكر العالي والعمل الكبير إلا بالشعور الوطني، فكل عامل على إطفاء نوره محارب لأمته وقومه وذويه، وكل داع إليه مجدّ في سبيل الحياة القومية الصحيحة والرقي الخالد".

خطبة رياض باشا

في احتفال مدرسة محمد علي الصناعية

قلنا عن نتائج الاتفاق الإنجليزي الفرنسي إن طبقة الخاصة من الأمة قد ازداد فيها الضعف والتخاذل، والانصراف إلى المنافع الشخصية، وكان أول مظهر لبروز هذه الروح الهدامة للحركة الوطنية، خطبة رياض باشا رئيس الوزراء الأسبق في الاحتفال بإنشاء مدرسة محمد علي الصناعية، ذلك أن جمعية (العروة الوثقى) بالإسكندرية أقامت احتفالاً كبيرًا يوم ٢٣ مايو سنة ١٩٠٤ لوضع الحجر الأساسي لهذه المدرسة، وقد رأس الخديو عباس هذا الاحتفال، فعظم شأنه، وصارت له صبغة رسمية، واتجهت أنظار الناس إلى ما يجري فيه، وألقى رياض باشا أمام الخديو خطبة امتدح فيه اللورد كرومر، لغير مناسبة، وقد كان معتذرًا لعدم حضور الاحتفال، كما امتدح الاحتلال، مما كان له وقع اليم في النفوس، غذ قال ضمن خطبته بين يدي الخديو ما يأتي:

"جناب المحتشم اللورد كرومر اعتذر اليوم عن الحضور في هذا المحفل لتغيبه عن مصر، كلُ يعلم ما له من المقام الأرفع والنفوذ الشامل في هذه البلاد، وبالأخص ما له من اليد الطولى في كل ما له مساس بالمصالح والمنافع العمومية، فهذه اليد الفعالة قد شملتنا، وهي التي كانت لنا معوانًا، بل متممًا ومكملاً لهذا المشروع، فحق علينا أن نعرف له هذه المبرة ونقدم لجنابه واجب الشكر و نثني عليه أطيب الثناء، ولا نبرح أن نترجاه بألا يترك هذا المولود وهو في المهد صبيًا، بل يراعيه بعين عنايته ويواسيه ويواليه، إلى أن تربى ويبلغ أشده ويصير رجلاً قويًا يقوم بأود نفسه.

"مولاي! اسمح لي أن أتكلم بما يخالد ضميري بحرية، إذا نظرنا وتأملنا الآن، على مجريات الأحوال وطبقنا ماضيها على حاضرها نجد أن الأحوال والأفكار قد تغيرت تغيرًا كليًا، واتخذت لها مجرى جديد نحو التقدم والترقي وبث العلوم والمعارف وانتشارها في كل بقعة من

بقاع البلاد، وكل ما نراه أمام أعيننا من هذه المشروعات العلمية الأدبية والمؤسسات الخيرية الأهلية تتلو بعضها بعضًا لا نشك ولا نرتاب في أنها اثر من آثار هذا الانقلاب، فلا حاجة بنا إلى أن ندخل في موضوع الشرح والتأويل، ولا البحث والتدقيق في علل الأمور ومسبباتها، بل نكتفي الآن بأن ننظر بعين البصيرة والاعتبار على ما كنا عليه بالأمس، وما نحن عليه اليوم، ونهنئ أنفسنا ونتهلل بشرًا ونسجد لله شكرًا على ما وصلنا إليه من التقدم الباهر مستبشرين بما تدلنا عليه قرائن الأحوال بمستقبل زاهر".

قوبلت هذه الخطبة بالدهشة، إذ دلت على روح الخضوع والزلفى والاستكانة التي تفشت بين طبقة الوزراء والكبراء في ذلك العصر، وهي الروح التي ضربت الذلة والمسكنة على البلاد سنين عديدة، وكانت أقوى سلاح استخدمه الاحتلال لرسوخ قدمه في البلاد، هذه الروح التي كان يناهضها مصطفى كامل بكل قواه منذ قام يدعو على مقاومة الاحتلال، فلا غرو إذ ثارت نفسه لخطبة رياض باشا التي كانت إهانة كبرى للشرف القومي والحركة الوطنية، وما كان يُمكن لمصطفى كامل وهو حامل لواء الوطنية أن يدع هذه الروح تنتش في النفوس فتميت فيها الشعور الوطني وروح الجهاد، فحمل على الخطبة حملة صادقة أيده فيها الرأي العام تأييدًا قلبيًا، وكتب عنها أول ما كتب مقالة تفيض وطنية واتزانًا واعتدالا في لهجتها قال فيها:

" يعرف قراء اللواء من أول نشأته أننا ضحينا في كل الحوادث بميولنا الشخصية خدمة للمنافع العمومية، وأثنينا على أشخاص لا نميل على بعضهم، واستحكم النفور بيننا وبين البعض الآخر، وأطريناهم لأنهم قاموا للبلاد بخدمات مشكورة لاعتقادنا أننا نخدم الوطن لا أنفسنا ونعمل لرفعة شأنه وإعلاء قدره لا للتشفي والانتقام. وإن الواجب الأول على كل قائم بعمل عام وكل كاتب يجري قلمه لصالح الوطن أن يكون منصفًا عادلاً، لا يبخس أحدًا حقه، لما في ذلك من التشجيع على الفضائل والأعمال النافعة والنفير من الرذائل والنقائص.

"ويعرف أصدقاؤنا رأينا بشأن سياسة رياض باشا وأدواره وأطواره في حكومة البلاد وأننا تناسينا ذلك لما رأيناه يساعد جمعية العروة الوثقى ويشترك معها في مساعيها الجليلة التي قوبلت بالارتياح العام والشكر التام من كافة المصريين، ولكن لم يكن يدور في خلدنا أن دولته يتذرع بالعروة الوثقى مساعيها الحسان ليتملق الاحتلال والمحتلين ويشهر السلاح ليقتل به العواطف العالية، لا ليستخدمه لصالح البلاد كما شاء فضلاؤها الذين سلموه إياه.

"إن دولة رياض باشا قال ما لم يقله مصري منذ أثنين وعشرين عامًا، وطعن الأمة طعنة قتالة، وسخر من أبناء وطنه جهارًا، وانتهز فرصة هذا العيد الوطني المصري ليرينا ويشهد العالم كله كيف يتقلب رجال السياسة وكيف يكون التناهي في تمجيد المحكومين للحكام وعبادة الذين فقدوا استقلالهم لمضيِّعه وسالبيه.

"إذا كان دولة رياض باشا يريد أن يشرح الصفات الشخصية لجناب اللورد كرومر التي يعرفها محبوه وأعداؤه على السواء، فاحتفال أول أمس لم يكن ميدانًا لشرح صفات الرجال السياسيين وأعمالهم، ولو كان يبتغي شكره على المائة الجنيه التي تبرع بها لمدرسة محمد علي الصناعية، فنحن أول من يعترف بالجميل ويعلنه، ولكن ليست هذه الأقوال مما يقال للشكر والثناء، وكم من الناس تبرعوا بمثل هذا المبلغ، فلم يُذكروا مثل جنابه؟ وإذا كان المتبرع بمائة جنيه يستحق بهذا الثناء الهائل، فكيف نسى دولته من تبرع بمائة فدان (المنشاوي باشا) ولم يشر على عمله العظيم بكلمة واحدة؟ أليس هو الذي أحيا الجمعية حياة طيبة وسهل لها سبيل النجاح؟ لذلك لم يرتب أحد من الحاضرين والسامعين في أن رياض باشا تعمد انتهاز هذه الفرصة للتقرب من المحتلين والتملق لهم وإعلان السياسة التي طالما أنكرها وتبرأ منها، وأجمع مريدوه قبل مبغضيه على أن حضوره في حفلة وداع السير إلدون جورست أولاً، وأقواله عن عميد الاحتلال في حفلة مدرسة محمد علي ثانيًا، وتجنبه ذكر المنشاوي باشا لكراهة جناب اللورد له ثالثًا، دلائل كافية على ما يريده من التحبب إلى الإنجليز لتعود الوزارة إليه".

وقد ثار الرأي العام على رياض باشا لخطبته، وانهالت رسائل الاحتجاج ضده في الصحف من مختلف الجهات، من الإسكندرية حتى أسوان، ودلت هذه الحركة على يقظة الروح الوطنية في النفوس واستنكارها سياسة التملق للاحتلال وتمجيده.

خطبة الفقيد بالإسكندرية (٧ يونيه سنة ١٩٠٤)

كان الموقف السياسي يستدعي خطبة من خطب الفقيد يحي فيها العزائم ويحفز النفوس إلى الجهاد، رغم الاتفاق الإنجليزي الفرنسي الذي فتّ في عضد الكثيرين وبخاصة بعد خطبة رياض باشا التي أعلن فيها سياسة التملق للاحتلال.

فألقى خطبة وطنية كبرى في الإسكندرية بمسرح (زيزنيا) مساء الثلاثاء ٧ يونيه سنة ١٩٠٤، جعل موضعها (الموقف السياسي لمصر، وواجبات المصريين) بدأها بقوله:

"سادتي وأبناء وطني الأعزاء:

" لقد وقفت بينكم هذا الموقف مرارًا وعرضت عليكم آرائي في شئون الوطن ومصالحه تكرارًا، ولكني لا أظن أن الحوادث دعت المصريين في وقت من الأوقات للنظر في حاضرهم ومستقبلهم واستحثهم لتبادل الأفكار فيما هم عليه وما يصيرون إليه كما دعتهم في هذا الوقت الذي خاب فيه بعض الآمال، وتساءل الناس هل قضي علينا أم لا يزال لنا مخرج من هاتيك الظلمات، وطريق النجاة من ذلك الحكم الأجنبي وتلك السيطرة الإنجليزية" ثم تكلم عن "الاتفاق

الودي" وائتمار انجلترا وفرنسا بمصر ومراكش، وحمل على السياسة الاستعمارية الإنجليزية والفرنسية، ثم عرج على سياسة الاستسلام التي يسلكها وزراء مصر وكبراؤها، وقال أن هذه السياسة كان لها دخل في التحريض على هذا الاتفاق، لأنه لا يوجد في العالم إنسان يخدم من لا يخدم نفسه ويدافع عن حق من تنازل عن حقه، وقد استسلمت حكومتنا للاحتلال استسلامًا أبعد عنها كل محب لها ميال لمساعدتها [1]، فإذا لمنا الغير مرة على إغفاله حقوق الماضي وروابطه، وجب علينا أن نلوم أنفسنا ألف مرة، لأنه مهما كان ذلك الغير مقصرًا في واجباته الأدبية ومخالفًا لتقاليده التاريخية فإنه دون رجالنا تقصيرًا ومخالفة".

واتخذ من عقد الاتفاق الودي دليلاً ساقته الحوادث على دحض مزاعم من كانوا يدعون أن القائمين بالحركة الوطنية محرضون من حزب الاستعمار الفرنسي، فقد بطلت هذه الدعوى، بعد أن أصبحت فرنسا صديقة لانجلترا، ونحن نحن على حالنا ندافع عن المبادئ التي أعلناها للملأ كله من أول عهدنا بالسياسة على اليوم".

التضحية والثبات

ثم دعا إلى التضحية والثبات قائلاً:

"إن الذي يسمع صوت ضميره مناديًا فيكل لحظة وآن بوجوب خدمة الوطن وإعلاء شأنه يشعر بأن دم آبائه الذي يجري في عروقه يطالبه بتضحية النفس لتلك الأرض الظاهرة التي لا شرف لها إلا بها ولا حياة بغيرها، ولا رفعة بدون رفعتها، ولا مجد غذ زال مجدها، إن الذي يسمع ذلك الصوت ويشعر بهذا الشعور لا يخاف العقبات والموانع، ولا يخشى السباب والمطاعن، بل يسير في طريقه ناظرًا إلى الغاية التي طلبها والبغية التي تعلق بها، واجدًا من سهام الأعداء ما يجده الجندي في جراح الحرب من شرف وفخار".

---

(١) كانت وزارة مصطفى باشا فهمي تتولى الحكم في ذلك العهد منذ نوفمبر سنة ١٨٩٥.

الوطنية لا تنثني أمام العقبات

"سهر أعداؤنا من الوطنية التي ننادي بها وندعو الأمة إليها، وقالوا ما شاء الحقد والعداء، ومن تخلى فؤاده عنها وجهل حقيقتها جاز له أن يقول فيها ما قال مالك في الخمر، ولكننا نرى أن محبة الأوطان ليست مما تميل النفس إليه ساعة ثم تنفر منه ساعة، أو وسيلة للكسب تنقضي بانقضائه، إنما الوطنية شعور ينمو في النفس ويزداد لهيبه في القلب ويرسخ في الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه واشتدت كربته، فإذا كنا افتخرنا بهذا الإحساس العالي وتباهينا به ورمينا كل من جهله أو تجاهله أو خالفه بالخيانة أيام كنا نؤمل الخلاص القريب والجلاء العاجل، فخليق بنا أن نتعلق به اليوم أضعاف تعلقنا به بالأمس، ونقول لهذا الوطن الأسيف: " كلما تمكن العدو منك تمكن حبك من القلوب وتعددت واجباتنا نحوك واشتد تمسكنا بحقوقك".

"أجل أيها السادة! لا حياة لأمة من الأمم بغير الوطنية الحقة، ولا معنى للعيش بدونها، ولا تتجدد الآمال وتقوم الأعمال إلا بها، لقد كانت أمم أخرى أتعس منا حالاً، ودننا رقيًا وتقدمًا، يحكمها الأجنبي بيد من حديد، ولا تجد من أفرادها عالمًا يرشدها أو كاتبًا ينصحها أو مربيًا يقودها، ثم ناداها منادي الوطنية وظهر فيها من ينبهها إلى هذه القوة الكامنة وذلك الكنز المدفون، فقامت بعد الرقاد الطويل ونهضت بعد السكون المديد، وعملت بعد الكسل والخمول وتخلصت من قيود الاستبداد والاستعباد بعد أن ذاقت مرارة الظلم والاضطهاد الأعوام والقرون".

الاستقلال والاحتلال

"يسألنا أنصار الاحتلال في الصباح والمساء، ماذا عملتم بوطنيتكم، وأي فائدة عادت على القطر منها؟ وهل رددتم إليه حقًا أو استرجعتم منصبًا، أو أوقفتم الاحتلال في طريقه وحولتم تياره الجارف؟.

" يسألنا الاحتلاليون ذلك تغريرًا بالأفهام، وهم يعلمون أننا لم نكن وزراء للبلاد بأيدينا الحل والعقد، أو ساسة في المناصب نناقش الاحتلال في مصالح الوطن ومطالبه، بل نحن قوم أحرار نخاطب الأمة ونوجه مساعينا إليها، نقول لها على مسمع من العالم كله أنها لا تكون حائزة لصفات الأمم الراقية والشعوب القادرة، إلا إذا كان الشعور الوطني متمكنًا من نفوس صغارها وكبارها، لأنه أقوى الروابط وجامعة الجوامع، نقول لها ونكرر القول إن مصدر المصائب التي حاقت بوادي النيل كان جهل أمته لحقوقها وواجباتها، وانحلال أجزائها بموت الشعور الوطني فيها، نقول لها ونقيم البراهين على صحة دعوانا أن الاستقلال وحده هو الذي يحمي البلاد

والممالك من كل بلاء، ويدفع عنها اعتداء الغير ويرقي ملكة الأفراد ويهب الشعوب الحرية والحكومة الدستورية والسيادة الداخلية والخارجية، نقول لها إن الاحتلال عار على الأمة وشنار على كل واحد من أبنائها، وإنه حجة على عدم كفاءتها ودليل على نقص مداركها وعدم استعدادها، وإن الإنجليز لا يعلمون لصالحها مهما ادعى المدعون، لأننا لم نسمع ولم يرو التاريخ، أن أمة قامت بخدمة أمة أخرى وان مغتصبا لملك سعى لرده على صاحبه".

ثم تكلم الخطيب عن ثمار الشعور الوطني الذي دب في الأمة، وما ظهر من نتائجه في رقي الأمة وأخذها بأسباب النهوض واتساع حركة التعليم القومي وبذل الأفراد والجماعات أموالهم للمنشئات العامة وظهور قوة الرأي العام في اتجاه إلى التعلق بالاستقلال والسخط على الاحتلال.

سياسة الاحتلال

وتكلم عن سياسة الاحتلال وما ترمي إليه من قتل الروح الاستقلالية في الأمة، قال:

"إنما تتقدم الأمم وترقى بالتربية والتعليم وبوجود الرجال العقلاء الكبراء ذوي الأفكار الرشيدة الذين يقودونها ويدلونها على منافعها وطرق الارتقاء، فماذا عمل المحتلون لذلك؟ هل يستطيعون أن يدعوا أنهم رقوا البلاد وأخرجوا لها رجالا قادرين على قيادة أمورها وإرشادها؟

"أليسوا يحاربون فضلاءها وكل ذي استقلال فيها ويمسخون التعليم في مدارسها مسخًا، ويمحون تربية النفس محوًا، ويقتلون لغة البلاد قتلاً، ويضطهدونها في شعورها ووجدانها؟ فماذا ينفع المال إذا بقيت الأمة متأخرة جاهلة قاصرة المدارك؟

الوطنية والجهاد والدعوة إلى الاتحاد

وختم خطبته بالدعوة إلى الاتحاد وبث روح الوطنية في النفوس، والجهاد في سبيل الاستقلال قال:

" أيها السادة. إن ازدياد الثروة المصرية، وانتشار التربية والتعليم، وارتقاء الصحافة وغير ذلك من الأمور الحيوية التي ينشرح لها الخاطر وتنبسط لها النفس، لا ترفع للأمة مقامًا ولا تعلى لها شأنا إذا لم تكن الوطنية نبراس الأفراد والجماهير، وغذاء الأرواح والنفوس، فليجعل كبيركم وصغيركم نصب عينيه الاستقلال، لأن الحياة بغيره عناء وعذاب، وإنكم مهما بلغتم من سعة العيش ووفرة المال وارتقاء في المراتب لا ترى فيكم الأمم الرشيدة إلا أنها قاصرة إذا دام الاحتلال فأعملوا للاستقلال واجعلوه أنشودتكم التي تترنمون بها على الدوام، وتركوا محبته كأثمن وأقدس ميراث، ولا تعودوا السنين عليه، لأن ما تجدونه طويلاً في حياة الفرد منا يعد يومًا أو بعض يوم

في حياة الشعوب، وثقوا بأننا بالغوه، لأن اله الذي يعاقب الشعوب المنقسمة على نفسها بسلبه، يكافئها برده متى اتحدت واتبعت إرادته وعلمت أنه خير ما وهب الرحمن للإنسان".

وقد قوبلت الخطبة بالتصفيق والإعجاب والحماسة والهتاف العالي من الحاضرين الذين كان يبلغ عددهم أربعة آلاف، فتأثر الخطيب في هذه المظاهر الرائعة، وشكرهم شكرًا مكررًا قائلاً لهم: "إني أعد التفاتكم إليّ وتعضيدكم لي دينًا عليّ، رما أعجز عن الوفاء به، ولكني أقابلكم على هذا الالتفات وهذه العناية بأن أكون في المستقبل كما كنت في الماضي: خادم الوطن الأمين".

وكان الاجتماع نجاحًا باهرًا للفقيد، كما كان لخطبته دويٌّ كبير في المحافل والدوائر الوطنية والأوروبية لأنه كان أول صوت جهير لمصر ارتفع بعد الاتفاق الودي الإنجليزي الفرنسي.

وقد وصفت جريدة (البصير) التي تصدر بالثغر الاجتماع والخطبة بقولها: "كانت ليلة أمس من الليالي المشهودة في مدينة الإسكندرية، وذلك للخطبة الغراء التي ألقاها سعادة رصيفنا الفاضل مصطفى باشا كامل، ولقد كان حضورها عديدين جدًا، حتى لا موطئ لقدم، ولكن النظام كان شاملاً والسكوت تامًا، وقد تكفل جمال الخطبة وحسن انتساقها بحفظ ذلك النظام، ولعل هذا الوصف خير ما يقال فيها" ثم جاءت على مشتملات الخطبة، وختمت الكلام بقولها: "وعلى الجملة فإن الخطبة بمعناها كانت من خير ما يقال في هذا العهد، وهي جديرة بأن تقابل بمثلها من جهة الفعل، فنرى في بلادنا أكثر من منشاوي باشا وأكثر من جمعية العروة الوثقى وأكثر من صاحب اللواء يقوم خطيبًا، وعند ذلك يتم كل مأمول بإذن الله وبشريعة التدريج".

وتردد صدى الخطبة في الخارج، نشرت جريدة (الفيجارو) الفرنسية تلغرافًا من مراسلها بالإسكندرية جاء فيها:

الإسكندرية في ٨ يونيه سنة ١٩٠٤

"ألقى مساء أمس مصطفى كامل باشا الخطيب المصري وصاحب (اللواء) خطبة سياسية كبرى في الإسكندرية أمام جمهور من المصريين يزيد على ثلاثة آلاف شخص، وقد قوبلت هذه الخطبة بالتصفيق الشديد، وأكد الخطيب أ، المصريين متعلقون الآن بالاستقلال الأهلي أكثر من ذي قبل. وقال: "إن مصر بالغة مكانتها في العالم عاجلاً أو آجلاً بفضل التعليم والتقدم الفكري". وقد صفق الحاضرون تصفيقًا حادًا لمصطفى كامل باشا الذي يعتبره أبناء وطنه حامل لواء الوطنية المصرية".

ظهور كتابه عن اليابان (الشمس المشرقة)

وفي يونيه سنة ١٩٠٤ ظهر كتابه (الشمس المشرقة) عن اليابان، ووضعه لمناسبة الحرب الروسية اليابانية، وما ظهر فيها من عظمة اليابان التي بهرت العالم بتقدمها ووطنيتها، وقصد الفقيد من تأليف هذا الكتاب أن ينظر المصريون بعين الاعتبار إلى الأمة اليابانية التي لم تكن شيئًا مذكورًا أيام كانوا أصحاب الحول والطول، ثم صارت بفضل اتحادها ووطنيتها موضع إعجاب العالم، ووثبت على الصف الأول من الأمم القوية العالية المقام، وأراد أن يبين لشعب كيف ترقى الأمم المتمسكة بأهداب الوطنية.

الاحتفال بعرض الجيش الإنجليزي بميدان عابدين

كان من عادة الإنجليز أن يحتفلوا بعيد مولد الملكة فيكتوريا ثم عيد الملك إدوارد السابع بعرض الجيش البريطاني بميدان عابدين برياسة اللورد كرومر ولم يكن الخديو عباس يحضر هذا الاحتفال. ولكنه بدأ يحضره لأول مرة في عيد ميلاد الملك إدوارد السابع يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩٠٤، غذ جاء الميدان مرتديًا بدلة التشريفة الكبرى، يحيط به ياورانه، ووقف تحت العلم البريطاني بجوار اللورد كرومر، وشهد العرض حتى نهايته، فكان لحضوره هذا الاحتفال الذي يمثل الاحتلال الأجنبي تمثيًلا مهينًا للكرامة القومية اثر اليم في النفوس، وكان موقع انتقاد الوطنيين في مجالسهم وأحاديثهم، مما اضطر (المعية) [1] إلى إصدار بلاغ رسمي تنسب فيه حضوره إلى مصادفة وجوده بسراي عابدين يوم العرض، قالت فيه:

"لما كان من المقرر أن يشرف الجناب العالي الخديوي في صبيحة أمس سراي عابدين العامرة حيث ينعقد مجلس النظار برياسة سموه ويتناول حضرات العلماء الأعلام طعام الإطار على المائدة ثم يتلو ذلك استقبال المهنئين بالمقدم السعيد وبحلول شهر رمضان المعظم. كان هذا اليوم مصادفة هو عيد ميلاد جلال ملك الإنجليز رأي الجناب العالي حفظه الله أن يحضر الاحتفال المعتاد إجراؤه سنويا في رحبة السراي لمناسبة هذا العيد، كما كان ذلك من عادة المغفور له الخديو السابق، وما وصلت هذه النية إلى علم جناب اللورد كرومر حتى بادر فدعا الجناب الخديو ليستعرض الجنود الإنجليزية فتلقى سموه هذه الدعوة بالقبول والارتياح..الخ".

والأمر الطريف في اعتذار المعية أنها نسبت حضور الخديو الاحتفال إلى (المصادفة)، كأنه لم يكن معلومًا من قبل أن هذا اليوم هو عيد ميلاد الملك إدوارد السابع، وأن حفلة العرض

---

(١) كانت كلمة المعية تطلق وقتئذ على حاشية الخديو.

ستحصل فيه، واضعف من ذلك في الاعتذار أن البلاغ الرسمي يلمح على أن الخديو توفيق باشا كان يحضر العرض، وهو عذر غير مقبول، لأن الخديو عباس لم يتبع سياسة أبيه منذ ولايته العرش، ولم يكفر في إتباع عادته في حضور العرض البريطاني إلا في سنة ١٩٠٤، وهذا يدل على تغيير جوهري في سياسته عقب الاتفاق الإنجليزي الفرنسي، وجنوحه على الخضوع للاحتلال، تلك السياسة التي بدأ يتبعها منذ وقعت حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨، ثم ظهرت بمظهرها العلني في حضوره استعراض جيش الاحتلال، فكأنه أراد أن يعلن بحضوره ولاءه للاحتلال وسياسته.

ومما يدل على أن الاعتذار بالمصادفة في بلاغ المعية لا صحة له، أن الخديو قد حضر العرض البريطاني للمرة الثانية في نوفمبر ١٩٠٥، ووقف تحت العلم الإنجليزي، بين قائد جيش الاحتلال واللورد كرومر، وشهد العرض حتى نهايته.

قال (اللواء) في هذا الصدد:

"وهذه هي المرة الثانية التي وقف فيها سمو الخديو هذا الموقف بصفة رسمية، ولما جرى ذلك في العام الماضي وشعرت "المعية" بدهشة الناس من هذه الحركة الجديدة في سياسة مصر نشرت في الصحف بلاغا (وأتت على نصه)، إلى أن قال:

هذا بلاغ السنة الماضية، وإذا كان من الصعب تحميل "المصادفة" مسئولية هذا الحادث مرتين، فمن المرجح أن المعية لا تنشر بلاغًا في هذا العام وتفضل السكوت على الكلام...".

ثم وقعت حادثة دنشواي في يونيه سنة ١٩٠٦، وأعقبها فوز الحركة الوطنية واشتدادًا السخط على سياسة الاحتلال بفضل حملات مصطفى كامل، فكان من نتائج ذلك عدول الخديو عن حضور العرض في نوفمبر سنة ١٩٠٦، ونوفمبر سنة ١٩٠٧، وقد علقت الصحف الأوروبية على هذا العدول وفسرته بأنه وقع بتأثير الحركة الوطنية، قالت جريدة (الامبرسيالي) الإيطالية في هذا الصدد: "ولعل سمو الخديو أراد بإطالة إقامته في الإسكندرية العدول عن الخطة التي اتبعها في عام ١٩٠٤ بعد أن لبث على عرش مصر اثني عشر عامًا، فهل فازت الصحافة الوطنية بنصائحها واحتجاجها".

زيارات اللورد كرومر للأقاليم

وكان من نتائج الاتفاق الانجليزي الفرنسي أن أخذ اللورد كرومر يظهر بمظهر صاحب السيطرة والحكم النافذ في البلاد، بعد أن كان يكتفي بتحريك الأداة الحكومية والسيطرة على البلاد من ورائها.

ومن علامات هذا المظهر الجديد زياراته لعواصم المديريات، فكان يقابل من المديرين وبعض كبار العيان بالحفاوة والإكرام، مما يقابل به الملوك رؤساء الدول.

زار الفيوم في فبراير سنة ١٩٠٥، فقابله المدير محمد بك محب والأعيان والعمد، وخطب فيهم، متكلما عن مشروعات الحكومة وأعمالها باعتباره صاحب النفوذ الفعلي فيها، فتكلم عما تبذله الحكومة في مكافحة الجراد وإبادة دودة القطن، وإنشاء صناديق التوفير وما على ذلك من المسائل الداخلية الحكومية وشكره أحد العيان بالنيابة عن المديرية على زيارة الفيوم وعلى النصائح التي ألقاها عليهم، وزار دور الحكومة كالمستشفى الأميري، والمدرسة الأميرية، ثم زار المركز والسجن والمجلس البلدي؛ وكان في انتظاره أعيان المدينة؛ ثم المحكمة الأهلية حيث استقبله القضاة وأعضاء النيابة، ثم شرب الشاي في دار المدير، وكان الموظفون وكبار الأعيان في ركابه.

وكان العيان الموالون للاحتلال يترددون من قبل في إظهار ولائهم له، فلما ابرم الاتفاق الودي سفروا في ولائهم وتسابقوا في ابتغاء الزلفى لديه.

وقد كان ظهور اللورد كرومر بهذا المظهر من الحوادث المؤلمة المهينة للكرامة الوطنية، المعرفة للحركة القومية، كتب اللواء في هذا الصدد يقول [١] "ظهر جناب اللورد كرومر أول الأمس بمظهر جديد لم يره فيه المصريون من أول عهد الاحتلال إلى اليوم. حيث ترك تسيير السفينة المصرية من وراء الوزارة المصرية، وتقدم بنفسه على الجماهير يخاطبهم في الشئون العامة ويلقي عليهم النصائح والأوامر، ويجمع العمد والأعيان بين يديه ليسمعهم ما يريد، فجناب اللورد كرومر أراد أن يفهم المصريين الآن أن سياسة التستر والانكماش والعمل وراء ستار قد انقضى عهدها ومضى زمانها، وأن المحتلين يقدرون المسئولية ويتحملونها جهارًا".

وكتب مصطفى كامل في لواء ٧ فبراير سنة ١٩٠٥ ينعي هذه الحالة بقوله:

" لا يسع المصري المحب لبلاده إلا أن يحزن أشد الحزن على المركز التعيس الذي وصلت إليه البلاد، ويندب استقلالا مزقته يد الزمان، وإني لا أدري بأي آذان سمع القوم أقوال اللورد كرومر، وماذا كان يختلج ضمائرهم إذ ذاك؟ وهل شعروا بأنه بحركته هذه أعلن موت السلطة المصرية؟ اللهم إني لو كنت بين تلك الجموع التي أصغت لأقواله لذبت أسى وكمدًا وقلت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا، لأن وقفته هذه ليست إلا إعلانا قطعيًا بأنه صار صاحب الحل والعقد والأمر والنهي الذي لا يعارض في شيء".

---

(١) عدد ٦ فبراير سنة ١٩٠٥.

واستمر اللورد كرومر في رحلته الاحتلالية، فزار المنيا فأسيوط فأبو تيج فنجع حمادي، حيث كان يستقبله المديرون والأعيان بالحفاوة البالغة.

تقارير اللورد كرومر

ولقد كان من نتائج "الاتفاق الودي" أن تقارير اللورد كرومر السنوية التي كان يرفعها إلى الحكومة البريطانية عن شئون مصر والسودان أخذت تزداد منزلة ومكانة بحيث صارت من أهم الوثائق عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية والإدارية وصار لها من الشأن ما لتقارير حكام المستعمران الإنجليزية، وكان يخوض فيها في كل ما له مساس بشئون الحكومة المصرية و البلاد، مما لا يصدر إلا عن صاحب السيطرة والنفوذ الفعال في الحكومة، وكتب في تقريره الذي ظهر في مارس سنة ١٩٠٥ أن وعد بريطانيا بالجلاء عن مصر كان قبل أن تعلم الحالة في مصر تمامًا، فلما عرفتها علمت أن وعدها كان في غير محله وأن تنفيذه يفضي إلى أضرار جسيمة!!

تعيين ياور إنجليزي للخديو

وبلغ من تدخل الإنجليز في المعية الخديوية واستسلام الخديو عباس لسياسة الاحتلال أن عين في تلك السنة (سنة ١٩٠٥) ياور إنجليزي للخديو وهو الكولونيل وطسن باشا.

ظهور كتاب (المصريون والانجليز)

Egyptiens et Anglais

جمع الفقيد في صيف سنة ١٩٠٥ خطبه التي ألقاها عن المسألة المصرية، والرسائل التي تبودلت بينه وبين كبار الساسة، وترجمها إلى الفرنسية، وطبعها بباريس كتابا ظهر في ديسمبر سنة ١٩٠٥ بعنوان (المصريون والإنجليز) في ثلثمائة وعشرين صفحة، ثم وزعه في كل جهات العالم، ليعرّف الأمم كافة بالحركة الوطنية المصرية، وميول المصريين، وحقيقة مقاصد الحزب الوطني، فكان خير دعاية عالمية للمسألة المصرية، وقد وضعت مدام جولييت آدم مقدمة هذا الكتاب، ومما قالته عن الفقيد:

" إنه يجاهد بكل الصور والأشكال ضد "اليأس والقنوط" و "عدم الاكتراث بشئون البلاد" و"قلة الوطنية"، تلك الآفات الثلاثة التي تهدد مصر كما تتهدد فرنسا نفسها، والتي هي اشد خطرًا على الأمم من المغيرين".

وقالت في موضع آخر عن الحركة الوطنية:

"إني أنا التي رأيت مصر و أدركت أسرارها وأحببتها وأعجبت بها، أعتقد بخصوبتها العقلية الأهلية الأبدية الخالدة كآثارها الفخمة، تلك الخصوبة المستعدة لأن تنتج أكبر النتائج بفضل معارف الوطنيين من أبنائها، كما يرى الإنسان خصوبة أرضها ظاهرة ومحولاتها ناضجة في أسابيع معدودة بفضل فلاحيها".

وكتبت الصحف الأوروبية نبذًا كثيرة عن الكتاب ومناحيه، ومن أبلغ ما نشر في هذا اصدد مقالة طويلة بليغة بالفرنسية في جريدة (الجورنال دي كير) بدأها كاتبها بشعار الفقيد (أحرار في بلادنا، كرماء لضيوفنا)، ومما قال فيها:

" لا أريد أن ألخص الكتاب أو أنتقده اليوم، وليست هذه مهمتي، فأني سائح أجوب هذه البلاد، ولكن مصر ليست الديار التي يجوبها الإنسان دون أن يتعلق بها، ولقد أكد لي البعض أن من يرى مصر مرة لابد أن يعود إليها، فهل سأكون أنا استثناء لهذه القاعدة؟" إلى أن قال:

"قرأت هذه الخطب التي ألقيت الأولى منها عام ١٨٩٥، والأخيرة عام ١٩٠٤ فهي عشر سنوات من حياة الخطيب، جمعة واختصرت في هذه الصحائف، وإن عشر سنوات قضيت في العمل والسعي والجهاد بلا ملل ولا خور في العزيمة لجديرة بأن يقف الإنسان أمامها، ولقد وف بإزائها واختبرتها وقلبتها، وما رأيت فيها وما استطعت أن أرى إلا الإعراب عن اشرف وأظهر وطنية، وإن فيها قوة وحدة، وروح الشباب والأمل تملأ هذه الصحائف وتهزها، وتشعر اليد بارتعاش عند تلقيبها، وإن القارئ عندما يطالع هذه الخطب لا يقرأها في الحقيقة، بل يسمعها، لأنها بالغة الغاية في الحياة، ورغما عن هذه الحرارة وتلك النار المشتعلة؛ ورغما من الحدّة التي تلازم كل حب شديد، قد أستطاع هذا الخطيب الشاب أن يحافظ دائمًا على الاعتدال، ويقف عند الحد الواجب، فهو حادّ اللهجة، وفي عباراته حركة شديدة أحيانا، بحيث يشعر بأنها تجري وتعدو وتدّوي كالسيل الجارف وقت ذوبان الثلوج، فيخيل على الإنسان أنها ستأخذ في طريقها كل شيء، ولكن السد الذي أقامته نفس شريفة وفكر عال موجود، فعبارات الخطيب تغلي كالماء ثم تجري واضحة رائقة تطرق القلوب، وتنزل برفق ويتسع مجراها، وتروي وتلطف ما تمر عليه، وهناك أمر آخر يستوجب دهشتي، وهو أن هذه الحياة واحدة منسجمة متصلة، فهي خط مستقيم لا انقطاع فيه، فترى من أول خطبة على آخر خطبة ضميرًا واحدًا، وروحًا واحدة، ليس فيها تناقض ولا خطوة واحدة في غير موضعها، وإلى مثل هذا ينتهي التعقل والصراحة الطهارة، وهو مثال يكاد يكون وحيدًا، وسيكون لهذا الكتاب في أوروبا رنة طويلة دائمة، لأن كل ذي عاطفة وطنية يشعر بها ويقدرها هناك، قد يختلف البعض مع الخطيب في أفكاره ويحكمون على هذه المسألة أو تلك حكماً مخالفًا لحكمه، ولكن إذا كان هذا الرجل وطنيًا يقول وينادي بكل قوته بحبه لبلاده،

ويعلم الجميع أنه يهبها شبابه وحياته [1] فلا جدال في أن القوم في أوروبا يطأطئون له الرؤوس احترامًا له، ولو كانوا خصومًا له أو أعداء" إلى أن قال:

" إن الوطني المصري إذا أفلح لا يفلح بغير تعريض نفسه للخطر، فهو معرض له أكثر من الأوروبي لضعفه وقلة الشعور الوطني في بلاد لم تتعود حكم نفسها بنفسها،نعم هو معرض للخطر أكثر من الأوروبي، وإن عمله أتعب وأصعب، فهو لا يجب عليه فقط أن يتكلم أمام الجماهير كما يفعل الخطيب الأوروبي بل هو مضطر لتربية هذه الجماهير وتعليمها، وتدريبها على الفكر والإحساس، وهو مطالب أكثر من غيره باحتراس وحذر نحو بني وطنه ونحو الأجانب، وإني أتوجع لعنائه بقدر إعجابي به، ومهمته لا تعود عليه الآن بالفائدة، فلابد من نفس كبيرة امتلأت بحب الوطن، وأخلاق قوية متينة، ليستطيع شاب أن يكرس حياته كلها لبلاده غير طالب شيئًا آخر سوى عظمتها وسعادتها واستقلالها!"

* * *

(١) نشرت هذه المقالة في يناير سنة ١٩٠٦ وتوفي الفقيد في فبراير سنة ١٩٠٨.

obeikandl.com

الفصل الحادي عشر

نادي المدارس العليا وتطور الأفكار

(سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٦)

obeikandl.com

تفتحت في قلوب الشباب زهرة الوطنية التي أنبتته دعوة مصطفى كامل، وأخذت تجيش بالشعور الوطني وتتحرك نحو أغراضه وأهدافه، وبدأت علائم اليقظة والحياة تظهر فيهم بشكل عملي سنة ١٩٠٥، وكان أول مظهر لهذه الحياة الجديدة أن فكر طائفة منهم في إنشاء ناد للمدارس العليا، يجمع بين طلبة هذه المدارس ومتخرجيها.

كان هذا النادي من أعظم مظاهر الحركة الوطنية في ذلك العصر، وصار بمثابة معهد وطني علمي أخلاقي تكوّن فيه جيل من خيرة الشباب المصري، وفيه ظهرت حركة فكرية قومية أنتجت على توالي السنين عدة مشروعات جليلة كان لها فضل كبير على النهضة الوطنية، فقد ظهرت فيه قوة الشبيبة ووحدتها، وامتزج الطلبة بالمتخرجين، فاكتسبوا بهذا الاتصال النضج الفكري والمعنوي، وفيه ألقى أعلام الفكر والعلم المحاضرات القيمة في مختلف العلوم والفنون، وفيه تأسست جمعية رعاية الأطفال وفي قاعاته اجتمعت وقتا ما لجنة إنشاء الجامعة المصرية، وفيه تأسست مدارس الشعب فأنشئت عدة مدارس لتعليم العامة، وقام أعضاء النادي بالتدريس فيها، وفيه نشأ مشروع النقابات الزراعية على يد المرحوم عمر بك لطفي، وفيه أخذ الطلبة يروضون أنفسهم على الأخلاق والفضائل والتضامن، وكان فوق ذلك معهدًا قوميًا لنشر المبادئ الوطنية الصادقة وبثها في نفس الجيل.

التفكير في إنشاء النادي

(سنة ١٩٠٥)

بدأ التفكير في إنشاء النادي سنة ١٩٠٥، وتألفت لجنة لتأسيسه في أكتوبر من تلك السنة برياسة الدكتور عبد العزيز نظمي بك، فأخذت تجمع الاكتتابات لتكوين رأس ماله، وعضدها (اللواء) في مهمتها، وحث الفقيد الأغنياء على المساهمة في الاكتتاب فيه، قال في عدد١٩ أكتوبر سنة ١٩٠٥:

"نرى من أوجب الواجبات إعانة هذا النادي ممن يقدرون العلم وذويه، ولذلك نود أن يقتفي الكبراء والعظماء والوجهاء اثر الذين جادت نفوسهم بما تبرعوا به لهذه الغاية الشريفة حتى الآن، وبقدر ما يتبرع الواحد لهذا النادي المحرومة منه هذه البلاد تعلم قيمة العلم عنده كثرة وقلة، فنستنهض همم السراة لمد يد المعونة إلى هذا النادي الذي سيكون محط رحال أبنائهم".

وقد بلغ ما جمع لتأسيسه مع ربح ليلة تمثيلية أقامتها اللجنة بدار التمثيل العربي ٢٨١ جنيه وذلك إلى آخر نوفمبر سنة ١٩٠٥.

أول جمعية عمومية للنادي

واجتمعت أول جمعية عمومية للنادي بهيئة جمعية تأسيسية يوم الجمعة ٨ ديسمبر سنة ١٩٠٥ بإحدى قاعات مدرسة الطب لانتخاب مجلس إدارة النادي، وبلغ عدد الحاضرين من الطلبة مائتي طالب، من مختلف المدارس العليا، وكذلك حضره لفيف من المتخرجين، وقد اشتركتُ في هذا الاجتماع أذ كنتُ طالبًا بمدرسة الحقوق ومن المشتركين في تأسيس النادي، وأسفرت عملية الانتخاب عن اختيار المرحوم عمر بك لطفي رئيسا للنادي، وكان من خاصة أصدقاء الفقيد، وموضع الاحترام بين مواطنيه، فأسبغت رياسته على النادي مهابة واحترامًا، وانتخب هو وعبد الخالق بك ثروت (باشا) عضوين بالمجلس عن متخرجي مدرسة الحقوق، وأمين سامي بك (باشا) وأحمد عزي بك عن متخرجي مدرسة المهندسخانة، والدكتور عبد العزيز بك نظمي والدكتور عبد المجيد محمود عن متخرجي الطب، ومحمد على دلاور بك وعلى حسني المصري عن متخرجي مدرسة المعلمين والألسن، وإسماعيل أفندي زهدي (بك) وأحمد أفندي أمين (بك) عن طلبة الحقوق، وحافظ أفندي عفيفي (باشا) وفؤاد أفندي صدق عن طلبة الطب، وسامي أفندي عصمت (بك) ونجيب أفندي مرتضى عن طلبة المهندسخانة وأخذ مجلس الإدارة يوالي جمع الاكتتابات من الطلبة والمتخرجين ويعد معدات افتتاحه حتى اكتملت هذه المعدات في مارس سنة ١٩٠٦.

حفل افتتاح نادي المدارس العليا – ٥ إبريل سنة ١٩٠٦ (أنظر ص ١٩٧)

ترى في الصدر: المرحوم عمر بك لطفي رئيس النادي وعن يمينه المرحوم عبد الخالق ثروت باشا وعن يساره المرحوم حسن بك رضا. والمرحوم على بك حسني المصري. المرحوم إسماعيل بك زهدي.المرحوم أحمد بك أمين المستشار سامي بك عصمت. ومن الجالسين في الصف الأول الدكتور عبد العزيز نظمي بك. محمد بك على دولار. ومن الجالسين في الصف الثاني المرحوم هارون سليم باشا المرحوم الدكتور محمود فتحي المحامي– الأستاذ السيد حسين. ومن الجالسين الصف الثالث عبد الرحمن بك الرافعي. مصطف بك الشوربجي المستشار. الدكتور أحمد بك سعيد. الدكتور سيد بك شكري. هاشم بك مهنا. وهيب بك دوس. نبيه بك سلام...إلخ.

افتتاحه

واتخذ النادي دارًا له بالمنزل رقم ٤ بشارع قصر النيل بالقرب من (سافواي أوتيل) القديمة، وافتتح يوم الخميس ٥ إبريل سنة ١٩٠٦ وكان الاحتفال بافتتاحه يومًا مشهودًا، غذ حضره الأعضاء المشتركون فيه من الطلبة والمتخرجين، وكان الطلبة هم قوام النادي، وحضر الاحتفال من رجال الحكومة حسين فخري باشا وزير المعارف وقتئذ ويعقوب أرتين باشا وكيلها "والمستر دنلوب مستشارها، والمستر متشل أنيس وكيل وزارة المالية. ومحمود صدقي باشا محافظ العاصمة ونظار المدارس العليا ووكلاؤها، وخطب في الاحتفال عمر بك لطفي رئيس النادي معلنا افتتاحه، ثم أعقبه فخري باشا وزير المعارف فألقى خطبة ترحيب بتأسيسه، ولما أتم خطبته صدحت الموسيقى العسكرية وطاف المدعوون بغرف النادي وأبهاءه فأعجبوا بحسن تنسيقه ونظامه، وكان بناء فخما، تحيط به حديقة غناء، وبه غرف واسعة. بعضها للجلوس، وبعضها لتلاوة الصحف والمجلات، وبعضها للبلياردو والألعاب المباحة، وفيه غرفة فسيحة للمكتبة جمعت عددا كبيرًا من الكتب العلمية النفسية. وكان من مبادئه منع الميسر والخمر منعا مطلقًا.

واطرد الإقبال على النادي، فكان عدد أعضائه حين تأسيسه ٢٤٠ عضوًا بين طلبة وخريجين، فلم يأت آخر ديسمبر سنة ١٩٠٦ حتى بلغوا ٤٧١، وبلغوا ٥٤٩ في آخر ديسمبر سنة ١٩٠٧، و٦٨٥ في آخر ديسمبر سنة ١٩٠٨، و٧٧٣ في آخر ديسمبر سنة ١٩٠٩، أي زادوا على ثلاثة أمثال عدده الأول.

وقد بعث تأسيس هذا النادي روحًا جديدة من التضامن والود بين الطلبة بقيت تجمع بينهم على مر السنين، وكان ينظم رحلات رياضية يشترك فيها الطلبة والمتخرجين، فقويت روابط الألفة بينهم باجتماعاتهم اليومية في النادي، ورحلاتهم الرياضية التي كانوا يقومون بها مجتمعين، وظل النادي قائمًا يؤدي مهمته خير الأداء حتى أقف بأمر السلطة العسكرية البريطانية في أوائل الحرب العام الأولى سنة ١٩١٤.

افتتاح نادي المدارس العليا – ٥ إبريل سنة ١٩٠٦ (صورة أخرى للحفلة) (أنظر ص ١٩٩)

وترى من الجالسين في الصف الأول: المرحوم عمر بك لطفي (في الصدر). سامي بك عصمت. توفيق باشا رفعت. علي بك حسني المصري. محمد بك علي دلاور، الدكتور عبد العزيز بكن نظمي. الدكتور وجيه راشد، الدكتور علي بك حلمي، الدكتور حافظ عفيفي باشا، الأستاذ صالح جودت، الأستاذ بديع قرمه، ومن الجالسين في الصف الثاني: الدكتور سالم هنداوي بك، الدكتور كامل سامي، فؤاد بك أنور المستشار هارون سليم باشا، الدكتور الأستاذ محمود فتحي، الدكتور تفويق بك عمر، ومن الواقفين في الصف الثالث: أمين بك الرافعي، الصادق بك حسين، محمد بك فايز، الأستاذ حاتم يوسف العسكري، نبيه بك سلام، أحمد بك عبد القادر، الأستاذ عبد المقصود متولي، إبراهيم بك راتب، سعيد باشا العزبي، محمد بك شركس، حسن بك زكي المستشار، وفي الصف الرابع الدكتور سيد كامل.

obeikandl.com

إضراب طلبة الحقوق

(فبراير سنة ١٩٠٦)

كان طلبة الحقوق أول من تشبعوا بالروح الوطنية التي بثها الفقيد في الشباب، وظهرت هذه الروح في تبرمهم بالنظام الذي وضعته وزارة المعارف في يناير سنة ١٩٠٦، وكان الغرض منه استفزاز شعورهم والتضييق عليهم ومعاملتهم بنظام المدارس الابتدائية والثانوية، فأضربوا عن الدراسة في فبراير سنة ١٩٠٦ احتجاجا على هذا النظام، وقد ساهمتُ في هذا لإضراب واشتركتُ فيه، إذ كنتُ من طلبة الحقوق المتذمرين، وكانت طلباتنا العدول عن النظام الذي وضعته الوزارة، والرجوع على النظام القديم، وكنا على حق في تذمرنا ومطالبنا، وليس أدل على ذلك مما كتبه الأستاذ إدوار لامبير ناظر مدرسة الحقوق [١] في مقالته التي نشرها عقب استقالته سنة ١٩٠٧، وسيأتي بيانها بالفصل الثالث عشر، إذ قال:" إن المستر دنلوب وضع لهؤلاء الطلبة الذين بلغوا سن الرجال نظاما من النظامات الموضوعة لصغار تلاميذ المدارس الابتدائية وأخذ يعاملهم بقسوة متناهية، ويستعمل معهم سياسة وخز الإبر، سياسة اضطهاد دنيء؛ فكانت نتيجة ذلك أن انضم الحزب المعارض للإنجليز فئة متعلمة راقية، وأن يسود أفئدة الشبيبة الحقد والبغض للإدارة الإنجليزية وأن تتحول مدرسة الحقوق معقلا للونية المصرية بحيث لا تكاد ترى بين الأربعمائة التلميذ الموجودين بها الآن عشرة لا يؤمنون كل الإيمان بمائي مصطفى كامل باشا".

كان هذا الإضراب هو الأول من نوعته، لأنه شمل مدرسة عالية بأسرها، وكان موجهًا ضد سياسة التعليم التي وضعها الاحتلال، وقد أجمع الطلبة جميعًا على الانقطاع عن الدراسة وألفوا لجنة تمثل جميع فرق المدرسة لتنظيم حركة الإضراب، وعقدوا اجتماعا في حديقة الأزبكية يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٦ألقيت فيه الخطب، وتعاهدنا فيه على التضامن واستمرار الإضراب حتى تجاب مطالبنا، فكانت لهذا الإضراب ضجة في البلاد، وتدخل اللورد كرومر في شأنه، وأمر وزارة المعارف بأن تأخذ الطلبة بالشدة، فأعلنت الوزارة تعطيل الدروس في المدرس من يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٦ حتى يوم السبت ٣ مارس، وأنذرت الطب بأن من يتأخر عن الحضور في ذلك اليوم سوف يفصل من سلك التلاميذ، وانتقد اللواء هذا القرار وقال: إنه قرار يوجب أشد الانتقاد لأنه يؤدي على إبطال تعليم الحقوق في مصر إذا أصر الطلبة على الإضراب.

---

(١) عين ناظرًا لمدرسة الحقوق الخديوية في أكتوبر سنة ١٩٠٦ خلفًا للأستاذ جرانمولان الذي وقع الإضراب في عهده.

واتخذ الطلبة جريدة اللواء لسان حالهم في نشر ظلامتهم من معاملة الوزارة إياهم، فكان هذا الإضراب هو المرحلة الأولى العملية لاتصال طلبة المدارس العالية بالحركة الوطنية، وتشبعهم بالمبادئ الاستقلالية، وتبعهم في هذا الاتصال طلبة المدارس العالية الأخرى، لما أبدوه من العطف على طلبة الحقوق وتأييدهم، وقد أخذ الإضراب من هذه الناحية صيغة عامة، إذ كان دليلاً عمليًا على فساد نظام التعليم أدى إلى سخط الطلبة وضيق صدورهم من سوء معاملة الوزارة إياهم، وكان بمثابة احتجاج على هذه المعاملة، وقد قابلته الحكومة بالشدة لكي تقمع الروح الجديدة التي ظهرت في صفوف الطلبة، وفي ذلك كتب الفقيد تحت عنوان (مسألة الطلبة) مقالة جاء فيها:

" قضت البلاد أسبوعًا كاملاً وهي شديدة الاهتمام بمسألة الطلبة، وقد دل هذا الاهتمام العظيم على أم أمر التعليم أصبح عند الأمة المصرية في مقدمة أمورها الحيوية، وإن لناشئتها المحل الأول من عنايتها، وأن رجال الغد هم موضع الآمال كلها، لقد أظهر إضراب الطلبة أمور جمة وأنتج نتائج عدة، أظهر خلل نظارة المعارف وفساد سياساتها وسوء إدارتها وعدم كفاءة المديرين لها، أظهر أن الطلبة كله ولدوا في عهد الاحتلال وتربوا بمقتضي النظامات التي وضعها ليسوا كما شاء أعداء مصر والمصريين جبناء أذلاء، بل إنهم ذوو غباء وشمم وعواطف راقية وإرادة حقيقية، أظهر أن رجال الغد متضامنون متكاتفون عارفون لمعنى الاتحاد الاتفاق، غيورون على حقوقهن، محبون للعدالة، متشربون بروح الاستقلال".

وقد انتهى الإضراب برجوع الطلبة إلى المدرسة يوم السبت ٣ مارس سنة ١٩٠٦ بناء على وعد المستشار القضائي بالنظر في طلباتهم، وأراد الاحتلال تثبيت مركز المستر دنلوب، وكان على ذلك الحين سكرتيرا عامًا لوزارة المعارف، وعليه تقع مسئولية إخلال نظام التعليم الذي أدى على إضراب طلبة الحقوق، فرقي مستشارًا للوزارة في مارس سنة ١٩٠٦ مكافأة له على أخذ الطلبة بالشدة.

حادثة العقبة

(مايو سنة ١٩٠٦)

ظهرت في سنة ١٩٠٦ حادثة سياسية مهمة هّزت أعصاب الأمة ووضعت من جديد مسألة الاحتلال والجلاء على بساط البحث والمناقشة، ونعني بها حادثة العقبة وتسمى أيضًا حادثة (طابة)، وبيانها أن تركيا اعتزمت في تلك السنة مد سكة حديدية من معان على العقبة، وهذه السكة تجعل لتركيا قوة جديدة على حدود مصر، وتهدد مركز الاحتلال الانجليزي، فاهتم الانجليز لهذا الحادث، وأرسلوا ضابطا كبيرًا عهدوا إليه وضع نقط عسكرية على طول الخط من العريش على العقبة، باعتبار أنها من أملاك مصر، إذ هي جزء من طور سيناء المعهودة إداراتها إلى مصر، ولكن الجنود التركيبة احتلت موقع (طابة) على بعد ثمانية أميال غربي العقبة، وقام لذلك خلال شديد بين تركيا وانجلترا، ظهرت في بمظهر الدولة الحامية لمصر، إذ طالبت تركيا باسم مصر أن تجلو عن طابة، وتهددت وتوعدت كما لو كانت مصر جزءًا من أملاكها، فكان هذا المظهر من علامات الحماية، مما أثار سخط الفقيد، فاستنكر موقف انجلترا من هذه الحادثة ودعا الإنجليز إلى الجلاء عن مصر بدلا من أن يتظاهروا بالدفاع عن حقوقها، وكانت تركيا ترمي بعملها هذا على افتتاح باب المسالة المصرية من جديد لإجبار انجلترا على الوفاء بعهودها في الجلاء، ومن هنا جاء عطف الأمة المصرية على موقفها في هذه الحادثة، إذ كان شبيها من بعض الوجوه بموقف فرنسا في حادثة فاشودة، وقد كانت تركيا تتوقع أن تؤديها بعض الدول الأوروبية في فتح باب المسألة المصرية، ولكن فرنسا كانت بحكم "الاتفاق الودي" مؤيدة لانجلترا، وطلب سفيرها في الأستانة من الحكومة التركية الإذعان لمطالب انجلترا، ووقفت روسيا موقفا يشبه موقف فرنسا، ولزمت ألمانيا الجمود يحال هذا الخلاف، مما جعل تركيا تجنح للتراجع، وانتهت الحادثة بانسحاب الترك من طابة في مايو سنة ١٩٠٦، وتأليف لجنة مصرية تركية لتسوية مسألة الحدود على قاعدة معاهدة لندن لسنة ١٨٤٠ وتلغراف ٨ إبريل سنة ١٨٩٢ المرسل إلى الخديو عباس الثاني والذي خول مصر إدارة شبه جزيرة طور سينا [1]، وانتهت اللجنة من عملها في أول كتاب أكتوبر سنة ١٩٠٦، إذ تم الاتفاق على الحدود الشرقية على أن تكون خطاب ممتدا من (رفح) على البحر الأبيض المتوسط إلى نقطة واقعة غربي العقبة بثلاثة أميال، وبقيت طابة ضمن أملاك مصر والعقبة من أملاك تركيا.

---

(١) فصلنا الكلام عن هذا التلغراف وعن أزمة فرمان سنة ١٨٩٢ في الفصل السادس عشر.

وقد جاءت حادثة العقبة دليلا ساطعا على كراهية الأمة للاحتلال وللحماية المقنعة التي انتحلتها انجلترا على مصر، وبرهانا جليلا على انتشار التعاليم الوطنية التي بثها الفقيد في النفوس.

زيادة جيش الاحتلال

كان من نتائج شعور الكراهية الذي بدا من المصريين حيال الاحتلال في حادثة العقبة أن قررت الحكومة البريطانية زيادة عدد جيش الاحتلال، فزاد من ٢٩٠٦ جنديا إلى ٤٧٥٨، وزادت النفقات التي تتحملها مصر في هذه الصد من ٩٧٥٠٠ جنيه على ١٤١٣٧٥ جنيه، وجاءت هذه الزيادة دليلا على اتساع الهوة بين الأمة والاحتلال وتفنيدًا لمزاعم أنصاره الذين كانوا يرجفون بأن الأمة راضية عنه موالية لحكمه.

* * *

obeikandl.com

الفصل الثاني عشر

حادثة دنشواي

(١٣ يونيه ١٩٠٦)

obeikandl.com

لا مراء في أن حادثة دنشواي هي من حوادث مصر التاريخية التي لا تنسى على مر السنين، لما كان لها من الأثر البليغ في تطور الحركة الوطنية، وفي مركز الاحتلال الانجليزي، فهي نهاية عهد كان الاحتلال يتمتع فيه بالاستقرار والطمأنينة، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الجهاد القومي عّم فيه الشعور الوطني بعد أن كان الظن أن سواد الأمة راد عن الاحتلال.

تفاصيل الحادثة

ترجع هذه الحادثة على أن بعض الضباط من جيش الاحتلال وبعض الموظفين البريطانيين كانت لهم عادة أن يتجولوا في بعض القرى والبلاد ليصطادوا الطيور ببنادقهم، ففي يوم الاثنين ١١ يونيه سنة ١٩٠٦ غادرت كتيبة من نحو ١٥٠ جنديا بريطانيا القاهرة متجهة بطريق البر إلى الإسكندرية، وبعد مسيرة يومين وصلت يوم الأربعاء ١٣ يونيه إلى منوف، فابلغ خمسة من ضباطها مأمور المركز أنهم يرغبون الصيد في بلدة (دنشواي)، وهي بلدة صغيرة تابعة لنقطة بوليس الشهداء بمركز شبين الكوم، ومشهورة بكثرة حمامها، وهؤلاء الضباط هم: الميجر بين كوفن قومندان الكتيبة، والكبتن بول، والملازمان بورثر وسميث ويك، والطبيب البيطري بوستك، فطلب المأمور من عبد المجيد بك سلطان أحد أعيان بلدة (الواط) أن يعد لهم مركبات عند السكة الزراعية الموصلة لبلدة (دنشواي) ففعل، فلما وصلوا إلى (كمشوش)، وقفوا هنيهة وعسكروا بها مع بقية الجند، ثم ركب الخمسة الضباط المركبات التي أعدها عبد المجيد بك سلطان مبتدئين من معدية البجورية مارين على الناحية سرسنا، ومنها على (دنشواي) وكان يرافقهم أومباشي من بوليس نقطة الشهداء وترجمان مصري، وذهب الأومباشي إلى العمدة ليبلغه خبر قدوم الضباط لكي يتخذ التحوطات التي تكفل عدم احتكاكهم بالأهلين، ولكنه ألفى العمدة غائبًا، ولم ينتظر الضباط حضوره، ولا رجوع الأومباشي، وانقسموا فريقين، فريق وقف على السكة الزراعية لصيد الحمام من خلال الأشجار الملتفة هناك، وهؤلاء لم يصبهم أحد بسوء، والفريق الآخر جاس خلال أجران القمح في دنشوان ليصطادوا ما بها من الحمام، فاتفق أن حمامتين كانتا على جرن مملكو لمحمد عبد النبي مؤذن القرية، وكان يشتغل به أخوه شحاتة عبد النبي، فجاء أحد الضباط الإنجليز وصوب بندقيته على الحمام، فصاح به شيخ طاعن في السن يبلغ الخامسة والسبعين من العمر اسمه حسن على محفوظ (وهو أول من حكمت عليهم المحكمة المخصوص بالإعدام) طالبًا منه أن يكف عن إطلاق البندقية، وإلا احترق الجرن، وكذلك صاح به شحاتة عبد النبي، فلم يعبأ الضابط،

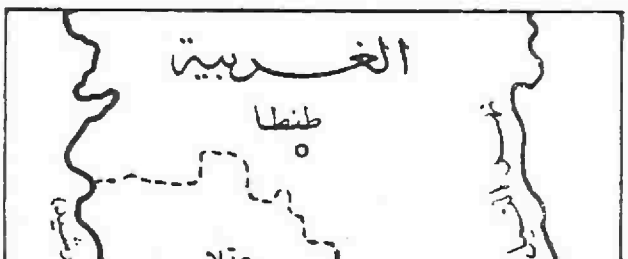

وأطلق العيار، قاصدا إصابة الحمام، فأخطأ المرمى، وأصاب امرأة تدعى أم محمد زودة محمد عبد النبي المؤذن، كما أصاب الجرن شحاتة فسقطت المرأة تتخبط في دمها، واشتعلت النار في الجرن، فأخذ يصيح ويستغيث، وهجم على الضابط وتجاذب وإياه بندقيته، واقبل الرجال والنسوة والأطفال هائجين صائحين: "الخواجة قتل المرأة! وحرق الجرن! الخواجة قتل المرأة وحرق الجرن!" وأحاطوا بالضباط، وجاء بقية الضباط الإنجليز لإنقاذ زميلهم، فتكاثرت جموع الأهلين، ووصل في الوقت نفسه شيخ الخفر ومعه الخفراء لتفريق الجموع، وإنقاذ الضباط، فتوهم هؤلاء أنهم جاءوا يريدون بهم شرًا، فأطلقوا عليهم العيارات النارية، فأصاب واحد منها شيخ الخفر في فخذه فسقط على الأرض وأصاب عيار آخر اثنين أحدهما من الخفراء، فصاح الجميع: " شيخ الخفر قتل! شيخ الخفر قتل!" وحملوا على الضابط بالطوب والعصي الغليظة وأثخنوا من لحقوا بهم ضربا، فأصيب الماجور بين كوفين قومندان الكتيبة بكسر في ذراعه، وجرح الملازمان سميث ويك وبورثر جروحا خفيفة، وأحاط بهم الخفراء مع زميل رابع لهم،اخذوا منهم أسلحتهم وحجزوهم حتى جاء ملاحظ بوليس النقطة وأوصلهم إلى المعسكر.

أما الكبتن بول والطبيب البيطري الانجليزي فتركا مكان الواقعة، وكان الأول منهما قد أصيب إصابة شديدة في رأسه، وأخذ يعدوان حتى قطعا نحو ثمانية كيلومترات في حرارة القيظ، غذ كانت الواقعة في صميم الصيف، فلم يكد الكبت بول يصل على باب سوق (سرسنا) حتى

سقط من الإعياء، ومات بعد ذلك متأثرًا من ضربة الشمس، ولما سقط تركه زميله الطبيب البيطري وأخذ يعدو حتى وصل معسكر الكتيبة بناحية كمشوش على ضفة الترعة الباجورية.

وما كاد نبأ الحادثة يصل على بقية جنود الكتيبة الإنجليزية في كمشوش حتى سارع الجنود الراكبة إلى مكان الواقعة، ولم يكادوا يقطعون بضعة كيلو مترات حتى بلغوا (سرسنا) وظنوا أنها دنشواي، وهناك وجدوا ضابطهم لقي على الثرى، ورأوا فلاحا مصريًا هو (سيد أحمد سعيد) يقدن إليه قدحا من الماء فظنوه من الضاربين، فأنحوا عليه ببنادقهم طعنًا ووخزا حتى هشموا رأسه، ومات بين أيديهم، وذهب دمه هدرًا، ولم يحاكم أحد من قتلته، وقد عرف هذا القتيل بشهيد سرسنا.

وصل نبأ هذه الحادثة يوم وقوعها على ولاة الأمور في المنوفية والقاهرة، وما أن علم بها رجال الاحتلال وعرفوا أن الكبتن (بوك) قد مات عقب الحادثة، وأصيب الضباط الآخرون؛ حتى تولاهم الغضب، وعولوا على الانتقام من أهل القرية التي وقعت فيها الحادثة انتقامًا ذريعًا شنيعًا.

المحاكمة

ثارت ثائرة الاحتلال من وقوع الحادثة، على أنها في الواقع راجعة أولاً على اقتحام الضباط البريطانيين بدون حق غيطان الأهالي وأجرانهم لاصطياد الحمام المملوك لهم وذهب المستر متشل مستشار وزارة الداخلية إلى مكان الحادثة يوم وقوعها، وجرى التحقيق فيها بمنتهى السرعة، وأخذ ولاة الأمور يقبضون على الأهلين جزافًا، ونشرت صحيفة (المقطم) الموالية للاحتلال يوم ١٨ يونيه قبل أن ينتهي التحقيق أن الأوامر صدرت بإعداد المشانق وإرسالها إلى مكان الواقعة، فدهش الجمهور لهذا النبأ، وتوقع أن أحكاما صارمة بالإعدام ستصدرها المحكمة المخصوصة، وأن المحاكمة إنما هي مهزلة صورية لا ظل فيها للعدل، ولا حرمة للقانون.

وكان الأمر العالي الصادر في ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٥ بتأليف المحكمة المخصوصة التي تحكم فيها يقع من الأهالي من الجنايات والجنح على عساكر أو ضباط جيش الاحتلال لا يزال قائماً (راجع ص ٥٨)، ففي ٢٠ يونيه سنة ١٩٠٦ أي قبل انقضاء سبعة أيام على وقوع الحادثة، أصدر بطرس باشا غالي وزير الحقانية بالنيابة قرارًا بتشكيل المحكمة المخصوصة لمحاكمة المتهمين فيها برياسة بطرس باشا غالي ذاته، وعضوية كل من المستر هيتر نائب المستشار القضائي، والمستر بوند وكيل محكمة الاستئناف الأهلية، والقائمقام لادلوا القائم بأعمال المحاماة والقضاء بجيش الاحتلال، وأحمد فتح بك زغلول (باشا) رئيس محكمة مصر الابتدائية، وأن يكون انعقادها في شبين الكوم يوم الأحد ٢٤ يونيه، وعين عثمان بك مرتضى رئيس أقلام وزارة

الحقانية سكرتيرا للمحكمة، وبلغ عدد من قدمتهم الإدارة لمحاكمتهم في هذه الحادثة أثنن وخمسين متهما، قدموا جميعًا مقبوضًا عليهم وسبعة من الغائبين.

وقد انعقدت المحكمة المخصوصة بهيئتها السالف ذكرها يوم الأحد ٢٤ يونيه بسراي المدرية بشبين الكوم الساعة العاشرة صباحا، وكان يحيط بها جو من الرهبة يملأ النفوس فزعًا، والقلوب جزعًا، والجنود الإنجليزية والمصرية ترابط حولها وعلى مقربة منها، وأخذت في سماع أقوال الشهود، وقد ثبت من شهادة الدكتور نولن الطبيب الشرعي أمام المحكمة، وكان إنجليزيا، أن وفاة الكبتن بول راجعة مباشرة إلى ضربة الشمس، وأنه لو لم يصب بها لم حدثت الوفاة من إصابة الرأس التي أصابته في الحادثة.

وكان تحامل المحكمة على المتهمين باديًا أثناء سماع الشهود، حتى أنه حين كان أحد الشهود واسمه عبد العال صقر يروي الحادثة بما يدل على تحذيره الضباط الإنجليز من الصيد داخل القرية، قال له المستر بوندك "ألا تعرف أن هذه المحكمة تعاقب الشهود الزور؟" فال (نعم)، فقال المستر بوند" " أنا أعرف المصريين أمثالك كيف تكون شهادتهم" واستمر المحكمة في سماع الشهود والدفاع ثلاثة أيام حتى يوم ٢٦ يونيه.

الحكم

وانعقدت المحكمة في صباح اليوم الرابع (الأربعاء ٢٧ يونيه) وتلا سكرتير الجلسة الحكم، وهو يقضي على كل من:

أولاً: حسن على محفوظ، ويوسف حسن سليم، والسيد عيسي سالم، ومحمد درويش زهران، بالإعدام شنقا في قرية دنشواي.

ثانياً: محمد عبد النبي مؤذن القرية. وأحمد عبد العال محفظو، بالأشغال الشاقة المؤبدة.

ثالثاً: أحمد محمد السيسي بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة.

رابعا: محمد على أبو سمك، وعبده البقلي. وعلى علي شعلان. ومحمد مصطفى محفوظ ورسلان السيد علي. والعيسوي محمد محفوظ. بالأشغال الشاقة سبع سنين.

خامسًا: حسن إسماعيل السيسي. وإبراهيم حسنين السيسي، ومحمد الغباشي السيد علي. بالحبس مع التشغيل سنة واحدة. ويجلد كل واحد منهم خمسين جلدة، وأن ينفذ الجلد أولاً بقرية دنشواي.

سادساً: السيد العوفي. وعزب عمر محفوظ. والسيد سليمان خير الله. وعبد الهادي حسن شاهين. ومحمد أحمد السيسي. يجلد كل واحد خمسين جلدة بقرية دنشوان، مع تكليف مدير المنوفية بتنفيذ الحكم فورًا.

فيكون مجموع من حكم عليهم واحدًا وعشرين متهمًا، حكم بالإعدام على أربعة منهم، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين منهم، وبها لمدة خمسة عشر سنة على واحد وبالسجن سبع سنوات على ستة، وبالحبس مع التشغيل مدة سنة مع الجلد خمسين جلدة على ثلاثة، وبالجلد خمسين جلدة على خمسة.

كيف قوبل الحكم

قوبل هذا الحكم بالدهشة لصرامته، ولأنه فاق كل ما كان يتوقعه المتشائمون وخلال من كل إنصاف وعدل، إذ كانت الحادثة راجعة أصلاً إلى عدوان الضباط البريطانيين، ولم يقع اعتداء من الأهليين إلا بعد أن أصيبت إحدى نسائهم وحرق جرن لهم، ولم يمت من الضباط الإنجليز سوى ضابط واحد ثبت من تقرير الطبيب الشرعي الإنجليزي أن السبب المباشر لوفاته هو ضربة الشمس التي أصابته من شدة الحر، وقد دل هذا الحكم على أن العدل الإنجليزي لا يؤمن جانبه إذا كانت الخصوم تمس صالحًا إنجليزًا.

تنفيذ الحكم

(٢٨ يونيه سنة ١٩٠٦)

كان تنفيذ الحكم بطريقة وحشية زادت فظاعة المحاكمة، وفاقت كل ما يتصوره العقل، من وسائل الانتقام والتعذيب، وكان التنفيذ في اليوم التالي لصدور الحكم في المكان الذي مات فيه الكابت بول، وفي مثل الساعة التي وقعت فيها الحادثة، ففي الساعة الرابعة بعد منتصف الليل سيق المحكوم عليه بالإعدام والمحكوم عليهم بالجد على نقطة الشهداء، على مسافة نحو عشرين كيلومترًا من شبين الكوم ولأربعة كيلومترات من قرية دنشواي، وأنزلوا بها بحراسة الجنود البريطانية والمصرية، حتى إذا اقتربت الساعة الأولى بعد الظهر جيء بهم إلى دنشواي، وهنا نصبت المشنقة وآلة الجلد، وتنفذ الحكم بقسوة وفظاعة، فبدأ بالتنفيذ في منتصف الساعة الثانية بعد الظهر، ونفذ الحكم في المشنوق الأول علناً، على مرأى ومسمع من أهله وذويه، وبين صياح النساء ونواحهن، وبقى معلقًا بينما نفذ حكم الجلد في أثنين، ثم شنق الثاني الطريقة، يليه

جلد اثنين آخرين، وهكذا تمت المجزرة في منتصف الساعة الثانية مساءًا، قال المرحوم الأستاذ أحمد حلمي المحرر وقتئذ باللواء في ختام وصفه لمأساة التنفيذ:

" كاد دمي يجمد في عروقي بعد تلك المناظر الفظيعة، فلم أستطع الوقوف بعد الذي شاهدته، فقفلت راجعًا وركبت عربتي، وبينما كان السائق يلهب خيولها بسوطه كنت اسمع صياح ذلك الرجل يلهب الجلاد جسمه بسوطه، هذا ورجائي من القراء أن يقبلوا معذرتي في عدم وصف ما في البلدة من مآتم عامة. وكآبة مادة رواقها على كل بيت، وحزن باسط ذراعيه حول الأهالي، حتى أن أجران أغلالهم كان يدوسها الذين حضروا لمشاهدة هذه المجزرة البشرية، وتأكل الأنعام والدواب بلا معارض ولا ممانع، كأن لا أصحاب لها ومعذرتي واضحة، لأني لم أتمال نفسي وشعوري أمام البلاء الواقع الذي ليس له من دافع إلا بهذا المقدار من الوصف والإيضاح".

***

ولق كُنت حينما وقعت الحادثة طالبًا بالسنة الثانية من مدرسة الحقوق، وكنت أطالع نبأها في اللواء، فأدهش لمخالفة منهج التحقيق والمحاكمة فيها لما كنا نتلقاه من أصول المحاكمات الجنائية التي تقضي بها القوانين، وتساءلُت ما فائدة ما نتلقاه من الدروس والقواعد القانونية إذا كانت لا تطبق على الناس كافة، ولما تلوتُ وصف التنفيذ في اللواء بقلم أحمد أفندي حلمي اقشعر بدني من هول ما قرأتُ، وأدركتُ مبلغ هوان المصري في نظر الاحتلال، وتحققت أن لا كرامة لأمة ولا لأي فرد من أبنائها بغير الاستقلال.

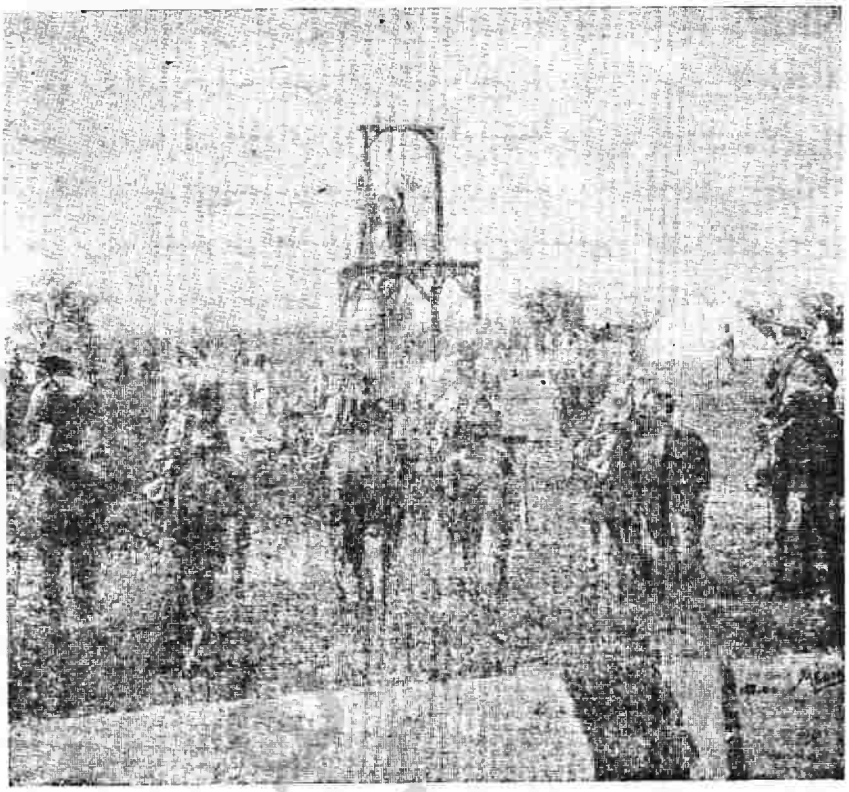

ساحة الإعدام في دنشواي – ٢٨ يونيه سنة ١٩٠٦

إعداد أول المشنوقين الأربعة

وترى عساكر الدراجون الإنجليز يحيطون بساحة الإعدام

مصطفى كامل وحادثة دنشواي

كان الفقيد في أوروبا حين صدر حكم المحكمة المخصوصة في قضية دنشواي وقد بلغته أنباء المحاكمة والتنفيذ وهو في باريس، وكانت النفوس في مصر واجمة يحز فيها الألم وهي ساكتة، كانت تتألم، ولكن ألم اليائس المستضعف، أمام جبروت الاحتلال وبطشه.

وصف المرحوم (قاسم أمين) هذه الحالة النفسية يوم تنفيذ حكم دنشواي بقوله:

"رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبًا مجروحًا وزورًا مخنوقًا، ودهشة عصبية بادية في الأيدي وفي الأصوات، كان الحزن على جميع الوجوه، حزن ساكن مستسلم للقوة، مختلط بشيء من الدهشة والذهول، ترى الناس يتكلمون بصوت خافت، وعبارات متقطعة وهيئة يائسة، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دار ميت، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف في كل مكان في المدينة، ولكن هذا الاتحاد في الشعور بقي مكتومًا في النفوس لم يجد سبيلاً يخرج منه فلم يبرز بروزًا واضحًا حتى يراه كل إنسان".

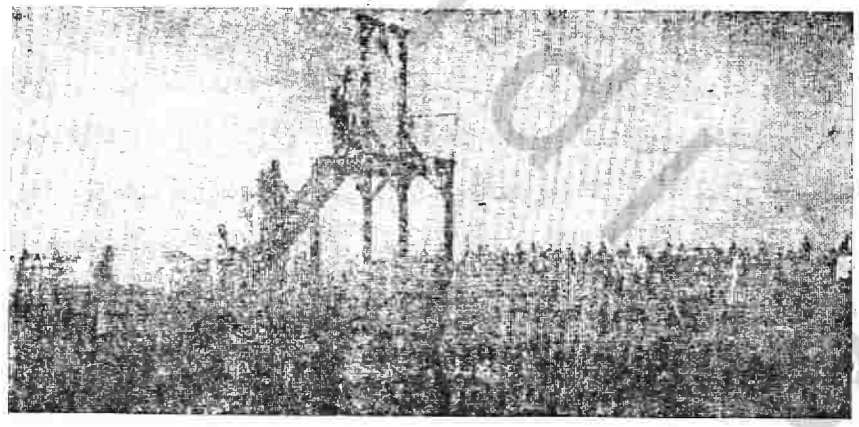

المشنوق الرابع في دنشواي وهو يصعد المشنقة (٢٨ يونيه سنة ١٩٠٦)

فهذا اليأس، وهذا السكوت، وهذا الاستسلام والوجوم الذي استولى على النفوس بعد حادثة دنشواي، وهذا الشعور الذي بقي مكتومًا على حد تعبير قاسم أمين، لم يكن لينهض بالأمة، ولا ليوقظ فيها روح الكرامة والإباء، بل كان من شأنه لو دام أن يزيدها يأساً وهوانًا واستسلامًا، ولكن عبقرية مصطفى كامل هي التي أبدلت من هذا اليأس قوة، ومن هذا السكون حياة وثورة.

لقد كان لابد من صوت عال يهز قلب الإنسانية، ويشهد العالم على تلك الفظائع ويستثير الرأي العام في مصر وأوروبا ضد الاحتلال عامة، وكان ذلك هو صوت الفقيد، ورغم أنه ذهب إلى أوروبا للاستشفاء ونصح له الأطباء أن يلزم الراحة والهدوء، فإنه لم يكد تصله أنباء المحاكمة حتى ثارت نفسه وتحرك قلبه الكبير إلى العمل والجهاد، ونهض بكل قوته لكي يسمع العالم صوت مصر، ويعلن حربًا شعواء على الاحتلال وسياسته، فكتب في جريدة (الفيجارو) الفرنسية الشهيرة [1] مقالة كبرى في الجريدة بعنوان (إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن)، عرض فيها حادثة دنشوان على الضمير الإنساني في العالم فكانت من أقوى وأبلغ ما كتب الفقيد بلسان مصر، وق استطرد فيها إلى جهاد المصريين في سبيل الاستقلال وأبان أن حادثة دنشوان قد قضت على مزاعم اللورد كرومر فيما كان يذيعه من أن الفلاحين المصريين محبون للاحتلال الإنجليزي، وأسمع العالم صوت مصر، إذ قال فيها:

"إن مقصدنا الذي نرمي إليه هو استقلال وطننا، ومجال أن يوجد شيء ينسينا ذلك المقصد".

ولما كانت هذه المقالة هي في ذاتها من أهم حوادث الحركة الوطنية، وكان من نتائجها إقالة اللورد كرومر من منصبه، فإنا ننشر ترجمتها هنا كاملة قال رحمه الله:

---

(١) عدد ١١ يوليه سنة ١٩٠٦.

إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن

"حدثت حادثة مؤلمة في قرية من قرى الدلتا بمصر تدعي "دنشواي" تحركت بسببها عواطف الإنسانية في العالم كله، وقام رجال أحرار الفكر مستقلو الأخلاق والأطوار في إنجلترا رافعين أصواتهم سائلين عما إذا كان يوافق كرامة الدولة البريطانية وشرفها ومصلحتها أن تسمح بأن يرتكب باسمها أمر ظالم قاس؟

" وإنه لمن الواجب على الذين يشغفون حقيقة بالإنسانية والعدل، أن يدرسوا هذه المسألة ويصدروا فيها حكمهم العادل، وهي المسألة الشاغلة لأمة بأسرها!

"فقد ترك ضباط من الإنجليز في يوم ١٣ يونيه الماضي معسكرهم بالقرب من دنشواي بمديرية المنوفية، وقصدوا صيد الحمام في الأملاك الخصوصية للأهالي، فأنذر شيخ فلاح المترجم المرافق لهم بأن الأهالي قد استاءوا في العام الماضي من صيد الضباط الإنجليز لحمامهم، وأنهم ربما زادوا من غضبهم وسخطهم لو عادوا إلى الصيد في هذا اليوم!

" ورغمًا من هذا الإنذار فإن الضباط أخذوا يصطادون، وأطلقت العيارات النارية، وجرحت امرأة، وحرق جرن، فاجتمع الفلاحون في كل مكان، ووقعت مشاجرة بينهم وبين الإنجليز جرح هؤلاء فيها ثلاثة من المصريين وجرح المصريون ثلاثة من الضباط الإنجليز، وقد تخلص أحد المجروحين، وهو الكابتن "بول" من المعركة" وقطع بكل سرعة مسافة خمسة كيلومترات، حيث كانت حرارة الشمس بالغة ٤٢ درجة، وسقط بعد ذلك ميتًا بضربة الشمس وما علم العساكر الإنجليز بما وقع لضباطهم حتى هجموا على قرية سرسنا المجاورة لدنشواي وقتلوا فلاحًا بدق رأسه!".

"هذه الوقائع، وما علمها أصحاب الأمر من الإنجليز حتى فقدوا الرشيد، وثاروا من قيام المصريين بالمدافعة عن أنفسهم وعن أملاكهم! وبدلا من أن ينظروا إلى الحادثة بسكون جأش ككل المشاجرات والمعارك، بالغوا فيها وجسموها، وأعلنت الصحف المخلصة للاحتلال قبل المحاكمة بأن العقوبات والعبرة التي ستضرب للناس ستكون هائلة! فم يكن العدل هو المنشود في المسألة، بل الانتقام الفظيع!

"ونشرت نظارة الداخلية بأمر المستر متشل المستشار الإنجليزي، قبل المحاكمة بأسبوع بلاغًا رسميًا أثقلت فيه كواهل المتهمين بالتهم، وقصدت صراحة التأثر في المحكمة والرأي العام! بولغ من احتقار إحدى الصحف القائمة بخدمة الاحتلال للعدالة أنها نشرت خبر إرسال المشانق

إلى دنشواي قبل المحاكمة، وقد راع الشعب كل ذلك فأخذ يتساءل عن الحكم الذي ينتظر صدوره بعد مظاهرة كهذه المظاهرة.

"وقد اجتمعت المحكمة في يوم ٢٤ يونيه، وأي محكمة؟ محكمة استثنائية لا دستور يقيدها ولا قانون يربطها! لقضاتها أن يحكموا بكل العقوبات التي تخطر على البال! محكمة أغلبيتها للإنجليز، ولا تستأنف أحكامها، ولا تقبل العفو! وأن المرسوم الذي صدر بتشكيلها في عام ١٨٩٥ – بناءً على ضغط اللورد كرومر – ذلك الضغط الذي لا يسمح للحكومة الخديوية مطلقًا بإظهار أي مقاومة– يحمل قارئه على الظن بأن الجيش الإنجليزي الذي ألقت إليه انجلترا أمر تأييد الأمن في مصر، في خطر مستمر، جعله في حاجة إلى محكمة كهذه المحكمة أو لآلة إرهاب".

"قضت هذه المحكمة ثلاثة أيام في نظر القضية، وتبين أن الضباط الإنجليز هم الذين الفلاحين بصيدهم في ممتلكاتهم، وبجرحهم أحدى نسائهم، وأن الفلاحين هجموا على الإنجليز بوصف أنهم صيادون يختلسون الصيد، لا ضباط بريطانيون! واعترف أمام المحكمة أطباء انجليز بنيهم الدكتور نولن الطبيب الشرعي للمحاكم بأن الكابتن "بول" مات بضربة الشمس، وأن جراحه لم تكن كافية وحدها لإحداث الوفاة!

" ولم تترك المحكمة إلا ثلاثين دقيقة لأكثر من حسين متهمًا ليقولوا ما عندهم، وأبت سماع أقوال أحد رجال البوليس، حيث أكد أن الضباط الإنجليز أطلقوا العيارات النارية على الأهالي، وبنت حكمها على تأكيدات الضباط الذين كانوا السبب في المعركة والذين يعتبرهم العدل في كل بلد خصومًا للمتهمين!

" وفي يوم ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين، وبالأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عام على واحد، وبها لمدة سبع سنوات على ستة، وبالحبس مدة عام مع الجلد على ثلاثة، وبالجلد على خمسة، وقد جلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلدة بكرباج له خمسة ذيول!!

"وقررت المحكمة في حكمها تنفيذ الحكم في اليوم التالي! بحيث لم يمض إلا خمسة عشر يوما بين الواقعة وتنفيذ الحكم.

"ففي الساعة الرابعة بعد نصف الليل من يوم الأربعاء ٢٧ يونيو جيء بالأربعة المحكوم عليهم بالشنق، والثمانية المحكوم عليهم بالجلد (عفت المحكمة عن واحد من المحكوم عليهم بالجلد لأن الطبيب قرر ضعف بنيته وعدم استطاعته تحمله) من شبي ن مقر مديرية المنوفية

على قرية (الشهداء) التي تبعد أربعة كيلومترات عن دنشواي، ولبثوا هناك تسع ساعات ينتظرون الانتقام المروع! وفي الساعة الأولى بعد ظهر يوم الخميس ٢٧ يونيه جيء بهم على دنشواي، وكان أصحاب الأمر من الإنجليز قد أصروا على تنفيذ الحكم في محل الواقعة وفي الساعة التي وقعت فيها!

"نُبت المشانق، ووضعت آلات الجلد والتعذيب في وسط دائرة مساحتها ٢١٠٠ متر، وأحاطت عساكر "الدراجون" الإنجليزية بالمحكوم عليهم، والتفت الخيالة المصرية حول الإنجليز، وتلوى المستر متشل مستشار الداخلية ومعه مدير المنوفية أمر التنفيذ! وقد تقدم إليهما ابن أول المحكوم عليهم بالشنق سائلا مقابلة والده ليتلقى وصاياه الأخيرة، فرفضا قبول هذا الرجاء الذي هو أعز ما يرجون الإنسان ويحتمه الشرع والعدل!

" وفي منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الانجليزية خيولها وشهرت سيوفها وبدئ بعد ذلك بدقيقة في الشنق!

"فشنق رجل، ولبث أفراد عائلته وأقاربه وكل أهالي القرية وهم عن بعد يملأون الفضاء بصراخهم الممزق للقلوب، وجلد اثنان أما الجثة!

"وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات، واستمر ساعة من الزمن! منظر وحشي مهيج للعواطف، بكى منه بعض الحاضرين الأوروبيين بدموع الحنان، وأبدوا النفور الشديد مما رأوا وذهب كل واحد يكرر كلمة أحد المشنوقين:

"لعنة الله على الظالمين! لعنة الله على الظالمين!

"إن يوم ٢٨ يونيه من عام ١٩٠٦، سيبقى ذكره في التاريخ شؤما ونحسًا! وهو خليق بأن يذكر في عداد أيام التناهي في الهمجية والوحشية!

"عمت مصر كلها عواطف الانفعال والسخط عندما استفاضت أنباء تنفيذ الحكم في دنشواي، ولقد كان من المستحيل على أعداء انجلترا أن يصلوا إلى النتيجة الحالية بعد جهاد خمسين عاما! ولكن من العجيب أن يكون الموجودون لها هم رجال من الإنجليز! وقد أنشأ الشعراء المصريون عن حكم دنشواي أشعارًا تخلد ذكرى المناظر الوحشية التي أهينت فيها المدينة والإنسانية والعدل بأقسى الصور المهيجة للضمائر والنفوس!

"وإني جئت اليوم أسأل الأمة الإنجليزية نفسها والعالم المتمدن، إذا كان يصح التسامح في إغفال مبادئ العدل وشرائح الإنسانية إلى هذا الحد؟

"جئت أسأل الإنجليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها أن يقولوا لنا إذا كانوا يرون بسط النفوذ الأدبي والمادي لانجلترا على مصر بالظلم والعسف وصنوف الهمجية؟

" جئت أسال الذين يجاهرون في كل آن ذاكرين الإنسانية، مالئين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط إذا حدثت فظائع في بلاد أخرى دون فظيعة دنشواي ألف مرة أن يثبتوا صدقهم وإخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفي وحده لأن يسقط إلى الأبد تلك المدنية الأوروبية في أعين العالم كافة!

"جئت أسأل الأمة الإنجليزية إذا كان يليق بها أن تترك الممثلين لها في مصر يلجأون بعد احتلال دام أربعة وعشرين عاما إلى قوانين استثنائية ووسائل همجية بل وأكثر من همجية، ليحكموا مصر ويعلموا المصريين ماهية كرامة الإنسان؟

"إني معجب بكل إخلاص وشكر واعتراف بالجميل بالنواب والكتاب الذين نادوا بأعلى صوت معلنين مزيد من غضبهم من هذه الرواية المحزنة الشنيعة التي مثلت في مصر! ولكن لما رأي السير إدوارد جراي [1] أن الرأي العام انقاد لهم وأنه قضى على سياسة اللورد كرومر، وقف في مجلس العموم وتكلم عن التعصب الإسلامي المزعوم في مصر، وسأل النواب بكل رجاء وإلحاح ألا يشتغلوا بمسائل مصرن حتى لا يضعفوا سلطة الحكومة المصرية، أو بعبارة أخرى سلطة اللورد كرومر الحاكم المطلق في مصر، أمام خطر أصرح أنا علنًا بأنه موهوم!!

"إن هذا الخطر الموهم ليس في أيدي أصحاب الأمر من الإنجليز إلا وسيلة لتسويغ هذه الفظيعة المستنكرة، وفظائع أخرى تقع في المستقل!!

"إنه لا وجود لهذا الخطر وما الغرض من هذه الفظائع إلا إحداثه!

"وإني أؤكد بحق أقدس شيء في الدنيا أنه لا وجود للتعصب الديني في مصر، نعم إن الإسلام سائد فيها لأنه دين الأغلبية العظمي، ولكن الإسلام شيء والتعصب شيء آخر، لقد انخدع السير إدوارد جراي في هذه المسألة! وإني أرجو أن يفكر لحظة فيما يأتي: هل لو كان في

---

(١) وزير خارجية إنجلترا وقتئذ.

مصر تعصب حقيقة أكانت تستطيع انجلترا أن تحاكم ٥٢ مسلمًا أمام محكمة استثنائية مؤلفة من أربعة قضاة مسيحيين وواحد مسلم؟

"هل تنفيذ الحكم في دنشواي بتلك الصورة الهمجية لم يكن كافيا وحده لإشعال نار التعصب المدمرة الصاعقة لو كان له وجود؟

"ألم تكن كل هذه التحريضات كافية لإخراج الشعب المصري عن أطواره وانفجار ذلك التعصب المزعوم لو كان هناك تعصب حقيقة؟

"ولماذا لم يثر ذلك التعصب الذي تكلم عنه السير إدوارد جراي معارك كمعركة دنشواي أثناء مسالة طابة، حيث كانت الأغلبية الكبرى من المصريين في جانب تركيا، مع أن الجنود الإنجليزية كانت تمر دائما في كل جهة بكل أمان واطمئنان؟

"لقد أثبتت المرافعات في قضية دنشواي بكل إفاضة وبيان أنه لا دخل للإسلام فيها، وأن الضباط الإنجليز وجدوا عند بعض الفلاحين المسلمين مساعدة وتعضيدًا!

"إنه يحق للمصريين أن يطلبوا تحقيقًا دقيقًا كاملاً في المسألة، وإن مصر على بعد يومين من أوروبا، فليأت إليها الإنجليز المحبون للعدل الراغبون في عدم ثلم الشرف البريطاني، وليذهبوا إلى المدائن والقرى وليروا بأعينهم كيف يعشي المسيحيون من كل جنس مع الفلاحين المصريين كافة، وليقتنعوا بأنفسهم بأن الشعب المصري ليس متعصبا أبدًا ولكنه شعب كريم أبيّ، ينشد العدل والمساواة، ويطلب أن يعامل كشعب حر لا كقطيع من الأغنام وأنه يعمل بكل عزيز لديه لتحقيق هذا المطلب الأسمى، مطلب الحرية والاستقلال!

"أجل، إن الشعب المصري شاعر الآن بكرامته، وذلك أمر لا يمكن إنكاره بأي حال، إنه يطلب معاملة أبنائه أسوة بالأجانب، وهو طلب عدل وغير مبالغ فيه أبدًا!

"لقد تكلم السير إدوارد جري في موضوع حماية الأوروبيين ضد المصريين! ولك هل له أن يبين لنا الخطر المهدد للأوروبيين القاطنين مصر؟ ألا يعيشون في أتم صفاء مع المصريين؟ ألا تحميهم الامتيازات الأجنبية؟ ولكن من يحمي المصريين؟ ألا نرى في بعض الأحيان مجرمين من الأجانب – يحتج النزلاء جميعا على جرائمهم– يعتدون على المصريين ويقتلونهم ثم يفلتون من عقاب المحاكم المصرية؟ وأي عقاب ستعاقب به الجنود الإنجليزية التي قتلت الفلاح على مقربة من دنشواي وكذلك الضباط الذين جرحوا امرأة وثلاثة رجال؟

"إن اللورد كرومر دافع عن نفسه في تقريره الأخير ضد الذين يطعنون على السلطة المطلقة التي يتصرف بها في أمور مصر قائلاً: إن البرلمان والرأي العام في انجلترا يراقبان أعماله كما أن الصحافة المصرية تراقبها أيضًا.

"ولكنها مراقبة باطلة لأنه ما كاد البرلمان البريطاني يعترض ويحتج على أعمال وحشية كهذه، حتى قال اللورد كرومر للسير إدوارد جراي بأن التعصب مخيف على شواطئ نهر النيل، وأنه يجب على البرلمان ملازمة الصمت! وبذلك لا يوجد مانع يمنع اللورد كرومر من حكم مصر بأشد القوانين مخالفة للعدل والإنصاف!!

"لذل يقضي شرف الأمة الإنجليزية عليها بأن توازن بين الأقوال الرسمية وأقوالنا، وتقوم بإجراء تحقيق دقيق ودراسة القضية المطروحة أمامها الآن بكل استقلال!

"لقد قضى اللورد كرومر الأعوام الطوال وهو يؤكد بأن الأمراء والكبراء في مصر هم وحدهم المبغضون للاحتلال، لأنه سلبهم سلطتهم، أما الفلاحون فإنه يحبونه حبا جما ويدعون بدوام العصر الحاضر!!

"وبناء على ذلك فإنه لم يكن اعتداء فلاحي دنشواي على الضباط الإنجليز إلا لأنهم رأوا إحدى نسائهم مجروحة، فالحكم والتنفيذ يكونان قد بلغا أقصى درجات البشاعة، بحق العلم كله أن يقابلهما بمزيد السخط! وإذا كان الأمر على العكس وأتى الفلاحون ذلك طوعا لعاطفة حقد ديني أو وطني فيتحتم على اللورد كروم أن يعترف بأنهم يمقتون الاحتلال وأن إدارته أدت إلى إخفاق ليس له مثيل ويحق عندئذ للمستر "ديلون" أن يقول مؤكدًا:" إن خطبة السير إدوارد جري هي أتعس شرح لمركز انجلترا وسياستها في مصر.

" على أن الذين يقطنون مصر كافة ويحبون الصدق والحقيقة، يعترفون بأن حادثة دنشواي لم تكن مطلقا نتيجة حركة عدائية ضد الأوروبيين، وأن المصريين هم أكثر أمم الأرض اعتدالا وتسامحًا!

"إن الخطة الوطنية التي يجري عليها أصحاب النفوذ والتأثير في الرأي العام المصري واضحة جلية، فنحن نريد بفضل التعليم ونور التقدم إنهاض شعبنا وتعريفه حقوقه وواجباته، وإرشاده إلى المقام اللائق به في العالم، وأننا أدركنا من أكثر من قرن أنه لا يمكن للأمم أن تعيش عيشة كرامة إذا لم تسلك طريق المدنية الغربية وأننا أول شعب شرقي صافح أوروبا وأننا مستمرون على السير في الطريق الذي سلكناه وإننا بالتعليم والتقدم والاعتدال والفكر الحر الراقي

تنال احترام العالم وحرية مصر، ومقصدنا الذي نرمي إليه هو استقلال وطننا، ومحال أن يوجد شيء ينسينا ذلك المقصد الأسمى!

"إن عطفنا على الشعوب الإسلامية لأمر طبيعي ولا تعصب فيه، وإنه لا يوجد مسلم مستنير واحد يظن لحظة واحدة أنه من الممكن اجتماع الشعوب الإسلامية في عصبة واحدة ضد أوروبا، والذين يقولون ذلك إما جاهلون أو راغبون في إيجاد هاوية بين العالم الأوروبي والمسلمين!

"إنه لا سبيل لنهضة الشعوب الإسلامية بغير حياة إسلامية جديدة تستمد قوتها من العلم والفكر الواسع الراقي!

"وإن مصر مكانا خاصا بها في الشرق، فهي التي وهبت العالم قناة السويس، وفتحت السودان للمدنية، وفيها طبقة راقية الفكر، وتقدم الأمة بالأمة يمشي فيها سراعا، ومن المستحيل أن تُحكم مصر وهذا حالها كما تحكم بلاد بعيدة مختبئة في أعماق أفريقية وليس بينها وبين أوروبا اتصال! ألم ير الناس الإنجليز ينفعلون ويهيجون ضد ما يجري في جهات الكونجو وغيرها من البلاد؟ فكيف يسمحون إذن بحدوث أفظع الجرائم في مصر؟

"إنه من الواجب على أوروبا كلها أن تهتم بمصر فأن صوالحها فيها جسيمة والكثيرون من رعاياها جمعوا ثروات كبيرة فيها، وإن القوانين الاستثنائية والاعتساف لا يؤديان إلا إلى هياج الشعب المصري وخلق عواطف عنده مخالفة بالمرة لعواطفه الحالية.

"إننا نطالب بالعدل والمساواة والحرية، نطلب دستورًا ينقذنا من السلطة المطلقة، ولا شك أنه لا يمكن للعالم المتمدن وللرجال المحبين للحرية والعدل في انجلترا إلا يكون معنا ويطلبوا مثلنا ألا تكون مصر –تلك التي وهبت للعالم أجمل وأرقى مدنية– أرضا تمرح الهمجية بها، بل بلاده تستطيع المدنية والعدالة أن يبلغ فيها من الخصوبة والنمو مبلغ خصوبة أرضها المباركة".

مصطفى كامل

دوت المقالة في أوروبا دويا عظيما، وتناقلتها الصحف في مختلف البلدان، وكان لبلاغتها وعباراتها المؤثرة، وصدورها من زعيم الحركة الوطنية، والتعليق عليها في معظم الصحف الأوروبية والبريطانية، صدى بعيد في الرأي العام الأوروبي والإنجليزي، وتزلزل من بعدها مركز اللورد كرومر في مصر وانجلترا.

ونصحت جريدة (التربيون) الإنجليزية بوجوب منح مصر حكومة مستقلة وكتبت مجلة المجلات الإنجليزية بقلم الكاتب الإنجليزي الشهير المستر ستيد مقالة ذكر الإنجليز فيها بوعودهم لمصر منذ بدء الاحتلال، وأخذت الصحف العالمية الأخرى تنشر الفصول المسهبة عن مصر والمسألة المصرية.

وكان للمقالة والحملة الفقيد عامة صدى في البرلمان البريطاني، فانبرى بعض النواب الأحرار يلقون على اللورد كرومر تبعة الحادثة، ويستنكرون المحاكمة والتنفيذ وتغير الموقف حيال الحادثة، فقد كان السير إدوارد جراي وزير خارجية انجلترا قد أسكت البرلمان بتصريح له يوم ٥ يوليه سنة ١٩٠٧، إذ طلب بلهجة شديدة عدو البحث في مسألة دنشواي بحجة أن التعصب الديني ضارب أطنابه في مصر وأنه لولاه لما وقع الاعتداء على الضباط الإنجليز، ومرت فترة جمود بعد هذا التصريح ولكن لم يكد صوت مصطفى كامل يدوّي في أوروبا استنكارًا لفظائع الاحتلال في الحادثة حتى أعلن بعض النواب الأحرار أنهم لا يقيدون أنفسهم بالسكوت في مسألة تهم الإنسانية والعدالة وشرف انجلترا، وقد ساعدهم على الخروج من صمتهم أن مصطفى كامل قد نفى بحجج بليغة تهم التعصب الديني عن المصريين.

مصطفى كامل في لندن

بعد أن نشر الفقيد مقالته عن حادثة دنشواي في جريدة الفيجارو، قصد لندن ليتمر في نضاله، وليرفع صوت مصر في عاصمة الدولة المحتلة، فوصلها يوم ١٤ يوليه، وكان يقصد مقابلة رجال السياسة وحملة الأقلام، لتفهيمهم الحقائق عن مصر وحض المفتريات التي كان يذيعها دعاة السوء عن الأمة المصرية من رميها بالتعصب الديني وأخذها بالشدة.

كتب في هذا الصدد تحت عنوان (أرفعوا أصوتكم) [1] قال" "لقد لثبت الأمة الإنجليز عدة سنوات تعتقد فيما تنشره الصحف عنها ويقوله السياسيون لها أن الأمة المصرية فرحة بالاحتلال،

---

(١) اللواء عدد ٢٦ يوليه سنة ١٩٠٦.

حتى حدثت حادثة دنشواي واهتزت لها المملكة البريطانية طلها وتساءل القوم في كل ناد "إذًا الأمة المصرية غير فرحة بالاحتلال"، نعم إن الأمة المصرية نافرة من الاحتلال، ومن واجبات المصريين أن يعلنوا أسباب ذلك النفور ويقولوا بأعلى أصواتهم إن أكبرها وأهمها ضياع استقلالنا، ذلك الاستقلال الذي أخذته انجلترا وأقسمت أن ترده إلينا قويا مصانا لا يستطيع أحد أن يمسه بسوء ليقل المصريون للأمة الإنجليزية إنه إذا كان ساستها قد نسوا أو تناسوا عهودهم ووعودهم فإننا معشر المصريين لم ننسها، ليقولوا بحرية وصراحة واستقلال كل ما يعتقدون وما به يشعرون، حق تعلم الأمم كلها أنهم أحياء يناضلون عن حقوقهم، ولا يقبلون المذلة والعار".

وصل مصطفى كامل إلى لندن، وقابل الكثيرين من رجال السياسة وأعضاء البرلمان البريطاني والصحفيين وحادثهم في حادثة دنشواي وحوادث مصر وسياسة انجلترا فيها، ومطالب المصريين، ونفى عنهم تهمة التعصب الديني التي كان يروجها ضدهم، دعاة السوء وانتهز فرصة هذه الحادثة ليرفع صوت مصر عاليًا مطالبًا باستقلالها فهو لم يحصر دعايته في الحادثة بذاتها،، بل وسع نطاق الجهاد واتخذها سبيلا للمناداة بحقوق مصر واستقلالها، وترجم مقالته (إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن) إلى الإنجليزية، ووزعها على جميع الوزراء وأعضاء البرلمان ورجال الصحافة.

حديثه في جريدة الديلي كرونكل

ونشرت جريدة (الديلي كرونكل) حديثًا له في عددها الصادر يوم ٢٠ يوليه سنة ١٩٠٦ وقدمت له بمقدمة قالت فيها:

"وفد مصطفى باشا كامل رئيس الحزب الوطني في مصر على لندن أخيرًا بقصد عرض مقاصد وسياسة مواطنيه المحبين لبلادهم على الأمة الإنجليزية وهو شاب مصري متعلم تعليما أوروبيا عاليًا بحيث يصعب تمييز الفرنسي المعلم تعليما علايا والمتربي تربية سامية عنه، سواء في المعرفة والعلم واللغة أو الأفكار بوجه عام، وهو صاحب ومحرر جريدة عربية تصدر في القاهرة تسمى (اللواء)، وهي أهم الصحف العربية وفي مقدمة الصحف التي تعد لسان حال السواد الأعظم من المصريين الذين مبدؤهم "مصر للمصريين".

ثم نشرت الحديث، وهو يدور حول دحض تهمة التعصب الديني التي أراد خصوم الحركة الوطنية أن يصفوها به، وبرهن على تسامح المصريين الديني، وعرج على حادثة دنشواي وفظاعة المحاكمة والتنفيذ فيها، ثم سأله محرر الجريدة عن برنامج الحزب الوطني، فأجاب: "بأن أول غرض يرمي إليه هو طبعًا العمل لاستقلال مصر، وقد وعدت الحكومة الإنجليزية المرة بعد

المرة وعدًا مقدسًا سواء في البرلمان أو في المكاتبات الرسمية بأن ترد مصر للمصريين، وبقطع النظر عن هذه الوعود فإن المصريين عامة متحدون في طلب الاستقلال، وهل تظنون أن أي إنجليزي يستطيع أن يتحمل ضياع حريته وفقدانها كما نتحمل نحن ذلك الآن؟ لاشك أنه لا يوجد إنجليزي يحتمل ذلك، وختم حديثه بقوله:

"إننا نطلب استقلالاً أهليًا ودستورًا حرًا، ولقد نالت مصر في عهد الخديو توفيق باشا برلمانًا، وهذا البرلمان قد انحل ملا دخل الإنجليز بلادنا، ولكن اللورد دفرين وعد عام ١٨٨٣ بتشكيل برلمان جديد، ولم يتم شيء من هذا الوعد إلى الآن! بل أن الورد كرومر تمكن من جمع سلطات الحكومة كلها في قبضة يده وأخذ يحكمنا كملك مطلق التصرف بمعناه الحقيقي، ولا ريب في أن مطالبنا يعلمها الإنجليز الذي يحبون الحرية"

احتفال الشرقيين بالفقيد في لندن

أعجب الشرقيون عامة بدفاع الفقيد عن قضية مصر واستقلالها وكرامتها، وأكبروا فيه البطولة والإقدام، إذ رأوه يجوب العواصم ويرفع صوت مصر جهيرًا عاليًا في أوروبا وانجلترا، ورأوا في جهاده مفخرة لكل شرقي، فلما جاء لندن أقامت جمعية الوحدة الإسلامية الهندية حفلة كبرى لتكريمه يوم ٢٤ يوليه سنة ١٩٠٦ فندق (كربتربون)، حضرها لفيف من عظماء الشرقيين والإنجليز، نذكر منهم السيد عبد الله المأمون السهر وردي رئيس الجمعية، وعبد الحق حامد بك أشهر شعراء الترك، والمستر بيلس من أعضاء مجلس العموم، والسير (بهاونجري) من كبار الهنوكيين ونائب الهنود في لندن، والمستر (سويني) رئيس الجمعية الوطنية، والمستر (باندیت كرشنا فرما) رئيس جمعية استقلال الهند، والمستر (كارل بلند) الكاتب الشهير، وغيرهم، وحضرها كثير من صفوة الشبيبة المصرية والشرقية، وبلغ عدد الحاضرين نحو ٢٥٠ مدعوا من علية القوم، فكانت من أفخم الحفلات، واستقبل فيها الفقيد بأعظم مظاهرة الحفاوة والإجلال.

ولما اكتمل الجمع وقف صاحب الدعوة السيد السهر وردي، وألقى بالعربية خطبة حيا فيها صاحب الترجمة قال:

"أن أفئدتنا لم تبتهج فرحًا لزيارة أمير أو وال من ولاة الإسلام بمقدار ابتهاجنا بزيارة سعادتكم لهذه البلاد، لأنكم أمير أمراء الوطنية، وأسد غابة الحرية، وبطل المدافعين عن حقوق الإنسانية،و لقد أحسنتم قي قدومكن إلى هنا بقصد إيقاف الأمة الإنجليزية على حقيقة الشئون المصرية وأغراض وآمال، مطالب المسلمين، وأني أؤمل بل وأثق بإصغاء الإنجليز لنداء المسلمين وأن لا يجعلوا للتعصب الديني والتحامل سلطانا على شعورهم دون العدالة والاستقامة،

وإذا فرض ولم تصلوا إلى بغيتكم هذه فإن ذلك لا يثبط من همتكم ولا يفت في عضدكم، فإن زيارتكم لإنجلترا لا تخلوا من فائدة قط، لأن صوتكم لا يصل من عاصمة هذه الدولة إلى إخوانكم في الدين في أقصى أنحاء المعمورة فقط، بل سيجد له صدي في قلوب محبي الأوطان في الممالك الأخرى الذين هم شركاؤكم في الآلام والمصائب ودولة الوطنية أوسع من دولة الإسلام، فلتعد إلى بلادك المحبوبة ولتستمر في جهادك في سبيل الحرية، واذكر في ساعة اليأس والقنوط والضيق أنك لست منفردا وحدك بل إن أسمى آمال القاطنين على ضفاف نهر الرين والطونة (الدانوب) والجانج والفرات والبوسفور وقرن الذهب، تشارك ابن وادي النيل في مساعيه، وإن أعينهم لمتجهة نحو أفق مصر، منتظرة بزوغ فجر الحرية وصدور الإشارة من أرض الفراعنة الأولين، بإنقاذ أبناء إسماعيل [1] ودخول المصريين في الحية التي وعُدوا بها.

"ولقد تغلب لساني على جناني، فألقيت عليكم أيها السادة باللغة العربية مع العلم بأن، السكوت في حضرة ديموستين [2] مصر هو أفضل بلاغة وأحسن بيان".

خطبة صاحب الترجمة

فوقف صاحب الترجمة وألقى باللغة العربية كلمة شكر قال فيها:

"أيتها السيدات، أيها السادة

"اسمحوا لي أن أشكركم في صميم فؤادي شكرًا لا يوفيه اللسان ولا يؤديه البيان على تفضلكم بالاجتماع هنا للتسليم على ومقابلة أعمالي الصغيرة بعنايتكم ورعايتكم وانعطافكم، وإني شعرت في كل وقت بعدم استحقاقي لشيء من ذلك كله، لأن القيام ببعض الواجب- وما أنا قائم به كله- جزء من فرض مقدس لا يشكر الإنسان عليه، ولكنكم أردتم أن تحيوا في شخصي المصريين المحبين لبلادهم العاملين لرفعتها المتشوقين لاستقلالها المغرمين بالدستور والحرية، ولذلك أستقبل مظاهرتكم السامية بجزيل الشكران، وأسألكم باسمهم أن تعتقدوا أننا لا ننسى أبد الدهر هذه العواطف التي أبديتموها بحضوركم إلى هذا النادي، وازدحامكم إلى هذا الحد الذي لم يكن يخطر لي على بال، وإني أكشر بنوع خاص حضرة السيد عبد الله المأمون السهر وردي

---

(١) العرب.

(٢) أحد كبار خطباء البرلمان.

الذي رأيت فيه من الحمية والغيرة ما ملأ قلبي سرورًا، وزاد في قوة آمالي، وأرجوه أن يعذرني في عدم توفيته حق الشكر على ما قاله، لأن العجز عن الشكر أبلغ شكر.

"إني عندما حضرت إلى لندن لم أكن أحلم بحضور اجتماع كهذا، أرى فيه أمم الإسلام والعرب ممثلة في آن واحد، وأخاطب فيه الإنسانية، في أبنائها الراقين النابغين، فترونني أعد هذه الليلة وحيدة في العمر، جديرة بالذكر أبد الدهر".

ثم تكلم طويلاً عن الأمم الإسلامية والشرقية، نوّه بواجب المتعلمين في إنهاضها والأخذ بيدها في سبيل التقدم والحرية، وعرج على نهضة مصر وأمله في فوزها، ثم قال: "وإني واثق بفوزها القريب العاجل، وظهورها بين أمم الأرض بأرقى مظهر، كما أني على يقين من أن محبي الإنسانية والمدنية الصادقين في حبها يميلون بكل جوارحهم على هذا الفوز ويساعدون على الوصول إليه غير ناظرين إلى الاعتبارات الصغيرة الدنيئة التي يقيمها ذو الغايات في طريق الأمم الناهضة".

وكرر في ختام خطبته شكره على الحفاوة التي قوبل بها، ولم يكد يتم خطبته حتى دوت القاعة بتصفيق الإعجاب من كل جانب، ووقف السيد عبد الله السهر وردي فترجم خطابه إلى الإنجليزية.

ثم وقف الدكتور بولن من كبار المستشرقين وألقى خطبة أعرب فيها عن مزيد إعجابه بخطبة صاحب الترجمة: وقال" "إنه وإن كان الكثيرون من الحاضرين لم يستطيعوا تتبع كلمات الخطيب كلمة كلمة إلا أنهم جميعًا شعروا بأنهم إنما كنوا منصتين لخطيب نادر المثال والقوة والكفاءة، وأنهم تاثروا من حسن اقتداره الواضح وشدة إخلاصه ورنات لهجة اللسان الجليل الذي كان يخطب به، لسان النبي إسماعيل".

وأفاض في ذكر محامد الإسلام وفضائل النبي محمد عليه الصلاة والسلام، ثم وقف المستر (بندت كرشنافارما) أ؛د علماء الهنود، وزعيم جمعية استقلال الهند ومحرر صحيفة (انديان سوسيولوجست) وأثنى على صاحب الترجمة ثناءً كبيرًا، وأعقبه الماجور السيد حسين بلجرامي،ألقى كلمة شكره فيها على جهاده.

وبعد أن انتهى الخطباء من خطبهم وقف المترجم وألقى باللغة الفرنسية كلمة شكر ثانية قال فيها:

"أيتها السيدات، أيها السادة

"إني أكرر لكم جزيل شكري على هذه الرعاية البالغة والإكرام العظيم، وإني رغمًا عن كل ما قاله الخطباء العظماء لا أعتبر هذه الحفاوة موجهة على شخصي بل أعتبرها موجهة إلى أبناء جنسي وإلى الشعور الوطني الذي يدفعنا على الدوام لخدمة مصر بما في الوسع والإمكان.

"وإن الوطنية لشعور تنحني أمامه الأمم كلها والأجناس على اختلافها، لأنه الشعور بقيمة الإنسان وكرامته، الشعور بنعمة الله وعنايته، والشعور بمعنى الوجود نفسه، وسواء كان الرجل يابانيًا أو صينيًا أو هنديًا أو جاويًا أو مصريًا أو إنجليزيًا أو فرنسيًا أو ألمانيًا، أو من أي جنس كان، فأنه يقابل بالإعظام متى كان ممثلاً للشعور الوطني، لأنه حامل لأطهر وأشرف شعور رفع الإنسان على أعلى مكان، وإني لست إلا حاملاً لواء الوطنية، وقد تفضلت هذه الليلة بتكريم هذا اللواء وتشريفه، فأشكركم باسمه شكرًا وافرًا، واسأل الله أن يفوقنا إلى تحقيق آمالنا العزيزة وإسعاد أوطاننا المحبوبة".

وكانت هذه الحفلة من أعظم ما لقيه الفقيد تكريمًا لجهاده في سبيل مصر.

وليمة (كارلتون) وخطبة المترجم

وأقام المترجم وليمة فاخرة بلندن في فندق كارلتون يوم الخميس ٢٦ يوليه سنة ١٩٠٦، دعا إليها بعض الشخصيات ذات النفوذ في المحيط السياسي البريطاني، من أعضاء مجلس اللوردات ومجلس العموم والصحفيين، وبعد أن تناولا الطعام وقف خطيبًا، وألقى بالفرنسية خطبة جامعة، بدأها بقوله:

"أيها السادة: أسمحوا لي أن أشكركم على الشرف الذي أوليتموني إياه بقبولكم دعوتي، وإني سعيد حقًا بانتهاز هذه الفرصة لأحدثكم في شئن مصر وإعلان الحقيقة عن عواطف المصريين وأفكارهم، وإن ذوي الأغراض ينشرون على الدوام في أوروبا عامة وفي انجلترا خاصة الأغلاط والأكاذيب بشأن أحوال مصر، وإحساسات المصريين؛ ولكننا واثقون من أن الحقيقة القادرة القاهرة تتغلب في النهاية دائمًا وتفوز وتهدم هذه الأبنية، أبنية الاختلافات والتهم الكاذبة".

الاستقلال والمال

وبعد أن نفى عن المصريين تهمة التعصب الديني تكلم عن الاستقلال فقال:"إن الحركة الموجودة في مصر حقيقة هي حركة وطنية أهلية لا نزاع فيها، فإن الشعب المصري متمسك باستقلال بلاده اشد التمسك، وإذا كان بعض الساسة الإنجليز يتظاهرون الآن بنسيان الوعود

والعهود التي قطعها رجالكم السياسيون علناً ونادوا فيها بردّ مصر إلى المصريين، فإننا لم ننسها نحن أبدا، بل لا يزال كل مصري يكررها وسيكررها على الدوام، عالمًا بأنه لا تسقط العهود المعطاة وكلمة الشرف "بمضي المدة" قائلاً مع اللورد فرين: " إن الاستقلال لا ثمن له".

" ولو فرضنا ولم تكن هذه الوعود والعهود قدمت فعلاً من رجال سياستكم فأي مطلب وأي غرض يرمي المصري إليه؟ أليس استقلال بلده، لقد ألقت الحالة المالية في مصر على عيون الكثيرون من الناس هنا غشاوة، فتراهم مندهشين من أن المصريين غير سعداء في عهد الاحتلال، وأن السامع لأقوالهم ليحسب مصر "سوقًا" لا وطنًا، فأرجوهم أن ينظروا إلى الأشياء بإمعان، ويدرسوا الحالة الأدبية لمصر ويدركوا على الخصوص أنه لا توجد ثروة في العالم ولا رخاء ينسي الإنسان كرامته".

السودان

ثم تكلم عن السودان فقال"

"وإنه لكي يدرك الإنسان أسباب تألم المصريين من الاحتلال الإنجليزي يجب عليه أن يتذكر أولاً أن السياسة البريطانية نزعت منا السودان ظلمًا، وهو روح وطننا، وكم ضحينا فيه من الأموال، والرجال فليس لمصر الآن فيه إلا مهمة واحدة وهي إعطاؤه جيشًا لتسكينه وتنظيمه، والمال اللازم لإدارته، وإن فؤاد كل مصري ليمتلئ حزنا وأسى عندما يفكر في هذا الجزء من وادي النيل المحكوم على حدة، المسلوب من مصر، السائدة فيه انجلترا".

ثم تكلم عن محو الحكومة الأهلية في مصر، وردّ على اللورد كرومر وطعن في سياسة الاحتلال عامة في مصر، وتكلم عن حادثة دنشواي وفظاعة الحكم والتنفيذ فيها، واحتج على وجود المحكمة المخصوصة، وطلب إعادة النظر في القضية.

الامتيازات الأجنبية

وتكلم عن الامتيازات الأجنبية فقال:

"إن من المسائل المرتبطة بالعدالة مسألة محاكمة المجرمين الأجانب في مصر، فإن المصريين ينفعلون يسخطون كلما افلت مجرم أجنبي من يد القانون المصري بفضل الامتيازات الأجنبية، وقد اقترح اللورد كرومر محوها وإنشاء مجلس دولي يعطي سلطة التشريع بحيث تمنح أوروبا الدولة البريطانية وكالة عنها في مصر وهذا الاقتراح لا يقبل من أوروبا، ولكن هناك حلا عمليًا للمسألة، وهو إعطاء المحاكم المختلطة حق النظر في الجنايات والجنح التي يرتكبها الأجانب، وإن هذه المحاكم حائزة لثقة العموم، وإنني أعتقد أن أوروبا لا تتردد في إجابة هذا الطب العدل إذا عرض عليها.

الدستور وحقوق المصريين

"لم ينس أحد من الناس أن مصر طلبت الدستور في خلال ثورة سنة ١٨٨٢ ونالته، ولكن انجلترا أبطلته ووعدت لسان اللورد دفرين بإعادته لمصر متى حانت الفرصة، وقد مضى أربعة وعشرون عامًا ونحن في انتظار هذا الدستور، ويلاحظ بأشد الألم والحزن أن السلطة المطلقة لمعتمد بريطانيا في مصر تمتد كل يوم وتنمو، وأنه لا يوجد شيء يضمن للمصريين السكينة والسلام والعدالة والسير الحسن لكافة الأعمال سوى دستور قوي متين يعطي الشعب حق مراقبة الحكومة في أعمالها وتصرفاتها، وإن مصر لأوفر تقدمًا ومدنية من بعض إمارات البلقان التي منحتها الدول الأوروبية وانجلترا على رأسها الحرية، وإن كل ثروات العالم لا تنسينا أبدًا كرامتنا وحقوقنا، ولقد كان من مصلحة انجلترا تقدم مصر ماليا لتنال ثقة حملة أسهم الدين المصري، ولتستطيع فتح السودان وتعميره بأموال مصر، ولكنها لم تنفذ التعهدات التي أخذتها على نفسها بشأن التقدم المعنوي للمصريين.

"فمعارضة الوطنيين المصريين للاحتلال طبيعية ولا غرابة فيها، وإذا كان القوم المتمدنون يجدون من الأمور العادية الطبيعية وجود حزب معارضة في انجلترا وفي بقية البلاد المتمدنة، فأي عجب في وجوده في مصر؟ وإذا كان أنصار التوسع في سلطة انجلترا ومد نفوذها في الآفاق يريدون جعل سيادتها عامة في كل مكان، فكيف يجد البعض من الأمور الخارقة للعادة مطالبتنا باستقلال وطننا؟

"إن انجلترا لم تفتح مصر ولم تغزها، بل دخلتها كدولة محبة لتوطيد عرش الخديوية ومساعدة الشعب المصري على أن يعيش عيشة الأمم المتمدنة، فهي عقدت بإرادتها ومحض رغبتها دينًا على نفسها نحو مصر ونحو الإنسانية، فمصر لا تسأل إحسانا بمطالبتها بحريتها، بل تطلب حقًا معترفا به ولا نزاع فيه، تطلب حقها في الحياة والوجود وإني على يقين من أنكم لو كنتم محلنا لشعرتم بنفس شعورنا، ولسلكتم مسلكنا، لأنه لا يوجد إلا مطلب واحد خليق بأن يشغل حياة الإنسان، ألا وهو "استقلال الوطن وعظمته".

وما انتهي الخطيب من خطبته حتى دوى التصفيق في القاعة كلها، وقام المستر جون روبرتسن النائب الحر بمجلس العموم الإنجليزي، ورد على خطبته بكلمة هي مزيد من تأييد الخطيب والدفاع عن وجهة النظر الإنجليزية، قال:

" يا حضرة الباشا

إني أتكلم باسم زملائي وأبناء وطني لأؤكد لكم أننا سمعنا خطبتكم باهتمام ممزوج بالعطف، وأننا نبحث قبل كل شيء عن معرفة حقيقة الأحوال في بلادكم ولذلك نريد أن نسمع صوت الجهتين (أي المصريين والإنجليز)، وإننا نؤمل أن أبناء وطنكم يخاطبوننا دائما بصراحة ويعرفوننا أفكارهم وشكاويهم، لأن مقصدنا وغرضنا هو خير مصر ليس إلا بمراقبة الإدارة العمومية مادام لنا نفوذ فيها، وما دمنا محتلين البلاد، ومن رأينا أن المراقبة الإنجليزية أفادت المالية المصرية كثيرًا، وإنا نريد أن نفعل مثل ذلك في الحياة الاجتماعية والتربية والإدارة والعدالة، إذ يجب أن لا تبقى انجلترا هناك لمصلحتها نفسها.

"أما مسألة دنشواي فإنكم يا حضرة الباشا تعرفون جيدًا مقدار القلق الذي قوبلت بها أخبارها، وإننا لا يمكننا أن نتكلم في هذا الصدد مادمنا لم نر التقارير الرسمية، ولكن يمكنني أن أؤكد لكم وجود الانعطاف الفعلي الخالص من قبل العدد الأكبر والأعظم من الشعب البريطاني، وإننا نقدر آمالكن ومطالبكم حق قدرها، ونؤمل على الدوام أن نرى يوما بفضل التبصر والتدبر تحقيق بغية الإنجليز والمصريين وأتمنى لها "الاستقلال المضمون لمصر".

وقد كان لهذه الوليمة وخطبة الفقيد فيها دويّ هائل في مصر، ونالت إعجاب الرأي العام، إذ أكبرت الأمة من زعيمها المجاهرة بحقوق مصر في العاصمة البريطانية، وبين جمع من كبار الإنجليز، ونفدت نسخ اللواء الذي نشرت فيه الخطبة، وانهالت الطلبات على إدارته بطبعها في كراسة على حدة، وتوزيعها على الجمهور، كما نلقي اللواء تلغرافات ووسائل عديدة بتأييد موقف الفقيد والإعجاب بجهاده، وزادهم إعجابًا به أنه قام يناضل بمفرده عن حقوق بلاده، ويرفع صوت

مصر في عواصم أوروبا، ويقوم بعمل كان يجب على رجالات الأمة أن يشاركوه فيه ويحتملوا معه عبئه.

مغادرته لندن وسفره إلى فيشي

أجهد الفقيد صحته في نضاله صيف سنة ١٩٠٦، فغادر لندن وقصد إلى فيشي للاستشفاء، وهناك استقبله المصريون المصطافون بها بالحفاوة البالغة والحماسة، وهنئوه على فوزه في جهاده، وكان في حاجة إلى الراحة بعد العناء، على أنه لم يترك الكتابة والدفاع عن قضية مصر، فما أن رأي في جريدة (الديلي جرافيك) الانجليزية مقالة عن المسألة المصرية زعمت فيها أن المصريين يعملون على تغيير النير الإنجليزي بالنير التركي، حتى انبرى للرد عليها بمقالة عنوانها (مصر للمصريين) نشرت في عدد ١٥ أغسطس سنة ١٩٠٦، فند فيها هذه المزاعم، وصرح "بأننا نريد أن تكون "مصر للمصريين" ونرفض قطعيا كل نير أجنبي وكل سيادة أجنبية وإن الذين يظنون أن الشعب المصري يمقت انجلترا لأنها دولة مسيحية ليسوا إلا مخطئين خطأ جسيمًا، فإن الشعب المصري يمقت المحتل الذي قوض دعائم استقلال وطنه، وإذا كانت مصر محتلة بأي دولة أخرى لكان شعور المصريين هو ذاته، لأن ضياع الاستقلال لا يمكن احتماله بأي حال من الأحوال".

وقد كتب هذه المقالة وهو في حاجة إلى العلاج والاستشفاء في فيشي، ولكنه لم يكن يعرف لنفسه راحة وهواده إلى جانب أداء الواجب نحو الوطن.

عودته إلى مصر

أكبرت الأمة جهاد المترجم أثناء مقامه في أوروبا صيف سنة ١٩٠٦، فسرت في النفوس فكرة الاحتفال به عند عودته تكريمًا له، غذ رفع صوت مصر عاليًا ورفع رأس الأمة في أوروبا والعالم، وتألفت لجنة في أغسطس سنة ١٩٠٦ بدعوة من المغفور له محمد بك فريد لجمع اكتتاب عام لهذا الغرض ودعوته على وليمة كبرى عند رجوعه وإهدائه هدية فاخرة إعرابا له عن تكريمه، وبدأت اللجنة بجمع الاكتتابات، فلما علم الفقيد بنبأ هذا المشروع أرسل من باريس خطابا بتاريخ ٢٤ سبتمبر على فريد بك يعتذر فيه من عدم قبول هذا التكريم، وبطلب أن تقوم اللجنة بدعوة الأمة إلى إنشاء كلية (جامعة) أهلية، وأن تتحد الجهود لتنفيذ هذا المشروع، وهذا الخطاب آية في الوطنية والشعور الشريف (وقد نشرناه بالزنكجراف ص ٢٣٦)، قال فيه:

" عزيزي فريد بك

"تحية وسلاما واحتراما وإعظاما، وبعد فقد طالعت اليوم في اللواء بعد عودتي من "هنداي" أنه تأسست لجنة في مصر بقصد عمل اكتتاب عام لدعوتي على وليمة وإهدائي هدية إعلانا لارتياح المصريين من قيام بخدمة بلادي العزيزة وأنك تفضلت فبلت أن تكون أمينا لصندوق هذه اللجنة.

"فاسمح لي أن أرجو منك أن تتنازل بتبليغ أعضاء هذه اللجنة ومن تكرموا بتلبية دعوتها أني أشكرهم من صميم فؤادي على جميل انعطافهم نحو أضعف خدمة الوطن، وجزيل رعايتهم نحو رجل لا يرى فيما عمل إلا جزءا من واجب عظيم جسيم يطالب كل مصري بتأديته.

"وإني ما شعرت لحظة واحدة في حياتي بأني مستحق لشيء من الالتفات أو الشكر على دفاعي عن حقوق مصر ومطالبتي باستقلالها ومناداتي بوطنية أبنائها لأني إنما أقوم بفرض مقدس، وما خطوت على اليوم الخطوة الأولى في سبيل إسعاد مصرنا العزيزة التي امتلأت رحابها بعظام الآباء والأجداد.

" وأي فل لمثلث واصغر جندي في الجيوش ووظيفة كل جندي من جنودها فكم تكون واجباتنا نحو الوطن عديدة وعظيمة نحن الذين استفدنا من نعم الوطن أكثر من غيرنا وامتزنا بالعلم والعرفان وقدرنا حقوق الديار ورأينا نور الحقيقة ساطعًا أمامنا وشاهدنا عظمة الشعوب الراقية وقارنا بين حالهم وحالنا وتقدمهم وتأخرنا.

"شكرًا لكم وألف مرة شكرًا، ولكني لا أستطيع أن أقبل ثناء لا أستحقه وإكرامًا لم أفعل شيئًا لنيله، ولا يمكنني أن أرضى بأن يكون الشعور الوطني مما يكفأ الرجل عليه، وهو لا يكون رجلا إلا به.

"نعم إني أعلم أنكم تحيون في شخصي الضعيف الفكرة الوطنية الشريفة، وتريدون أن تعلوا شأنها، وترفعوا لواءها، كما أن أعدائي والطاعنين عليّ إنما يحاربون في الحقيقة هذه الفكرة وذلك الشعور، لأني لست شيئًا، على حين أن الوطنية هي في حياة الأمة كل شيء.

"ولكن ما تبتغون كائن لا ريب فيه، فقد ارتفع لواء الوطنية المصرية رغما عن كل معاند ومعارض، وعلم العالم كله أن المصريين أحياء يشعرون ويرغبون المجد من السبل الصالحة والمؤدية إليه، واقتنعت الأمم أننا نطلب الحياة والدستور والحرية بالعقل والروية ونسعى إلى إسعاد وطننا بالعلم والجهاد القانوني، وهي نتيجة ما كان ليصدق أعداء مصر والمصريين أنها تكون

بعد أن ظن الجاهلون بأسرار حياة الأمم وارتقائها أن مسألة استقلال مصر قد قرت واستراح ساسة الإنجليز منها.

"فخير هدية اقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز والأمة المصرية المحبوبة هي أن تقوم اللجنة التي شكلت بدعوة الأمة كلها وطرق باب كل مصر لتأسيس كلية أهلية تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء، وتهب الأمة الرجال الأشداء الذين يكثرون في عداد خدامها المخلصين ممكن لا يخافون في الحق لوما ولا عتابا، ويعملون لمداواة أدوائها وجمع أمرها وبث روح الوطنية العالية في كافة أبنائها، لأن كل مليم يزيد على حادة المصري ولا ينفق في سبيل التعليم هو ضائع سدى، والأمة محرومة منه بغير حق.

"هذه هي الهدية الوحيدة التي يليق بالوطنيين الصادقين إهداؤها لمصر والمصريين هذه هي الهدية الفريدة التي تملأ الفؤاد فرحًا وانشراحًا وفيها أرقى مظاهر الحياة والشعور.

"فلتنس الأحزاب انقساماتها، وليتس الصحافيون خصوماتهم، ولتلق الأحقاد (ولو يوما واحدًا) في هوة لا يسمع منها لغو ولا دوي، ولتجتمع الأمة لإتمام هذا العمل الفخم، وتحقيق ذلك المشروع الذي كله خير ونفع عميم.

"وليذكر الذاكرون أن بين أبناء الفقراء الذين سد الاحتلال في وجوهم أبواب العلم والنور رؤوسا لو تحلت بالعرفان لكانت فخار مصر إلى أبد الزمان، ليذكر ذوو الإحساس والوجدان أن في مصر كنوزًا لم تستخرج للآن، وأنها لو أخرجت للناس لملأت الأرض نورًا، وأن هذه الكنوز مدفونة بين مساكن الفقراء، إن الكلية – الجامعة– هي البناء الذي أدعو المصريين جميعًا على تشييده وما أكبر سعدي وأعظم هنائي لو ساعدتني الأيام على وضع حجر فيه مع العملة الأبرار الذين يعملون لخير البلاد ليس إلا، ولا يسألون أحدًا (جزاء ولا شُكورًا) هذا وأرجوك أيها الصديق أن تتفضل بقبول اصدق سلام وأوفى احترام من محبك وأخيك"

باريس في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦

مصطفى كامل

(خطاب الفقيد إلى فريد بك ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦)

باريس في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦

أخي العزيز وحبيبي

الله فتحة والله مسلمي. أيدك الله بسلكة خطابك وقراءة اليوم مثالك وسررت بالعافية. والله وارك السلامة واخبارك الطاهرة وصحتك العالية فما يكفيني بالحياة لفرحة وتعيما وسعادة وسعودا. فالف شكر والبك كتابي الذي اخشى نشر هائل وبدا مراسلاتي كافة الكرائد اخ نشرته بلوغك المحتشم بالوطنية والحرية والدستور فحمد لله زوارك كل يوم والاكتتاب الى تقوية الشعب والحمد لله على انك تقبل الفتحة مني اخيك المخلص مصطفى كامل

عزيزي فريد بك

تحية وسلاما . واحتراما واعظاما . ولقد فقد طالعت
اليوم في الصباح بعد عودتي من "هنداي" انباء سعي لجنة في
مصر لتخليد عمل الكتاب هام لدعوتي الى وليمة واهدائي هدية
اعدوها لارشيف المصريين من قيامي بخدمة بلادي العزيزة . وانكر
تفضلت فعللت انه تكريم لكم ضمنه لكم اللجنة

فاسمحي لي أن أجيبكم أن تتنازل بتبليغ أعضاء لجنة
اللجنة - ومن تكرموا بتلبية دعوتي اني أشكرهم شكرا جزيلا فؤادي
من جميل اعطافهم نحو أضعف خدمة الوطن العزيز وجزيل
رعايتهم نحو جل لدي فيما عمل الاجزاء من واجب عظيم
جسيم يطالب كل مصري بتأدية

واني ما شعرت لحظة واحدة في حياتي بانني مستحق لشيء
من الالتفات أو التكريم على وفائي نحو خدمة مصر ومطالبتي
باستقلالها ومساواتها بوطنية أبنائها . لان انما أقوم بفرض
مقدس . وما خطوت الى اليوم الخطوة الأولى في سبيل اسعاد
مصرنا العزيزة التي امتلأت حبا لها بعظام الآباء والاجداد!

وأي فضل لمثلي وأصغر جندي في الجيش يبلغ علينا جميعا
أكبر رئيس وأسمى غاية . لانه الى حامل لراية الوطن المدافع عن
شرفه ومجده واستقلاله العزيز لحياته صيانة لحياة الملايين
من الشيوخ والنساء والاطفال

فإذا كانت هذه شأن كل فرد من أفراد الجيوش وظيفة كل جندي من جنودها، فكم تكون واجباتنا نحو الوطن عديدة وقطعية؟ نحن الذين استفدنا من نعم الوطن أكثر من غيرنا وامتزنا بالعلم والعرفان وقدرنا حقوق الديار وأبينا نور الحقيقة ساطعاً أمامنا وشاهدنا عظمة الشعوب الراقية وتأثرنا بما حالها وتقدمها وتأخرنا

شكراً لكم وألف من شكراً! ولكني لا أستطيع أن أقبل ثناءً لا استحقه وإكراماً لم أفعل شيئاً لنيله. ولو أمكنني أن أرضي بأن يكون الشعور الوطني ما يكفي فإن الرجل عليه وحده لا يكون رجل الأمة

نعم إني أعلم أنكم تحبون في شخصي الضعيف الفكرة الوطنية الشريفة وتريدون أن تقدسوا شأنها وترفعوا لواءها. كما أن أعدائي والطامعين عليّ إنما يحاربونه في الحقيقة هذه الفكرة وذلك الشعور. لأني لست شيئاً على حدة إن الوطنية هي في حياة الأمة كل شيء

ولكنكم ما تنتفعون كائنين لا ريب فيه. فقد ارتفع لواء الوطنية المصرية رغماً عن كل معاند ومعارض وعلم العالم كله أن المصريين أحياء يشعرون ويرغبون المجد في السبل الصالحة المؤدية إليه واقتنعت الأمم أننا نطلب الحياة والدستور والحرية بالعقل والروية ونسعى إلى اسعاد وطننا بالعلم والجهاد القانوني. وهي نتيجة ما كان ليصدها أعداء مصر المصريين

انك تكون بعد أن ظن الجاهلون بأسرار حياة الأمم
وارتقائها أنه مسئلة استنزاف مصر قد قبرت واستراح
ساسة الانكليز منها

فخير هدية أتقدم بها إليكم تقديراً للوطن العزيز والأمة
المصرية المجيدة هي أن تقوم النخبة التي شكلت بدعوة
الأمة كلها وطرق باب كل مصري لتأسيس كلية أهلية
تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء وترتب لهم
الرجال الأستاذة الذين يكتبون عداد خدام
المخلصين لهم لوجه الله ولا يطلبون لها ولا يقبلون لها
أدوات على وجمع أمرها وتبث روح الوطنية العالية في نفوس
أبنائها. لون كل تعليم يزيد عن حاجة الفقراء ولا يتفق
في سبيل التعليم هو ضائع سدى والأمة محتاجة بغير حد
إلى هذه الهدية الوحيدة التي تليق بالوطنية الصادقة
أصدق الصدق المصرية. هذه الهدية التي تملأ
الفقراء وغالب الأغنياء أيضاً فيها مظاهر الحياة والسعادة

فليتنبه الأغنياء إلى ما يقال وليتنبهوا لصيحة عصرهم
وليتلقف الأحفاد ولو يدا واحداً في هذه الدعوة لا يسمع من قول
ولا رأي. وليجتمع الأمة لإتمام هذا العمل العظيم وتحقيق
تلك الأمنية التي هي كل خير ونفع عميم

وليذكر الذاكرون أن بين أبناء الفقراء الذين سدوا اختلال
في وجوههم أبواب العلم والثروة رؤوساً لو تحلت بالعرفان

لكانت فخار مصر الى أبد الآباد . لتذكر وزد الإحساس والوجدان انه مصر كلها لم تستخرج للآن . ولو أخرجت للناس لملأت الأرض نورا . وانه لحق الكنوز مدفونة بين مساكن الفقراء !

انه الكلية ص البنار الذي أود المحرية فحيها التشييد وما أكبر سعدي وأعظم صنائي لو ساعدتني الأيام على وضع حجر فيه مع العدة الأبرار الذين ليعملوه لخير البلاد ليس الا ولا يسألونه احدا "جزاء أو شكورا"

صنا وأجدكم ابلغ صديقي أن تتفضل بقبول أصدق سلام وأرق احترام من محبك واخيك

مصطفى كامل

باريس ٢٤ سبتمبر ١٩٠٦

وقد قوبل الخطاب بالارتياح والإعجاب، وتحول المشروع إلى المساهم في جمع الاكتتابات لتأسيس الجامعة المصرية.

ووصل الفقيد على الإسكندرية صباح يوم الاثنين ١٥ أكتوبر سنة ١٩٠٦ وقدم توا إلى العاصمة بقطار الساعة التاسعة صباحا، فاهتزت مصر لمقدمه، وأخذت الوفود والجماعات والأفراد تؤم دار اللواء لتحية الزعيم والإعراب له عن شكر الأمة وإعجابها بجهاده.

نتائج حادثة دنشواي

أسلفنا القول بأن حادثة دنشواي من الحوادث التاريخية التي لا تنسى على مر السنين، لما كان لها من الأثر البليغ في تطور الحركة الوطنية، ونريد هنا أن ننتقل من الإجمال إلى التفصيل، فنذكر ما هو ذلك الأثر البليغ، أو بعبارة أخرى ما هي نتائج حادثة دنشواي، وإذا تكلمنا عن نتائج حادثة دنشواي فكأننا نتكلم عن نتائج (جهاد مصطفى كامل في حادثة دنشواي)، لأن من الحق أن يقال إنه لولا هذا الجهاد لما كان للحادث من نتيجة سوى تغلغل روح الخضوع والرهبة في نفوس المصريين، وقد كان هذا ما يقصده الاحتلال إذ أراد أن يضرب الحركة الوطنية بانتقام فظيع يلقي الرعب في النفوس ويجعل الأمة تستشعر بسوء المصير لكل من تحدثه نفسه بمقاومة الاحتلال، ولكن جهاد مصطفى كامل فوّت على الإنجليز قصدهم، كفان للحادثة من النتائج غير ما ظنوا وتوقعوا.

١ – اشتداد ساعد الحركة الوطنية

فأولى هذه النتائج أن الحركة الوطنية اشتد ساعدها بانضمام جمهرة المصريين إليها، إذ شعروا بأن مصطفى كامل كان على حق في جهاده للاستقلال، وأن المصري لا كرامة له حقا بإزاء الاحتلال الأجنبي، ولا مراء في أن سريان هذا الشعور هو فوز كبير للحركة الوطنية.

لقد كان الاحتلال قبل هذه الحادثة مطمئنا على ثقة السواد الأعظم من المزارعين والأعيان في عدله وإنصافه، حتى أن اللورد كرومر كان يعتز بأنه مؤيد من أصحاب "الجلاليب الزرقاء" – يقصد الفلاحين– ولكن حادثة دنشواي كشفت عن حقيقة نيات الاحتلال وهي أنه لا يرضيه من المصري سوى الخضوع والاستسلام ولا يرضى منه أن يشعر يوما بالعزة والكرامة، وإذا تحرك فيه هذا الشعور كان جزاؤه الظلم والتنكيل، فالحادثة إذن قد حببت الاستقلال إلى نفوس المصريين، وجعلته يعتقدون أن لا كرامة للأمة ولا لأي فرد منها إلا في ظل الاستقلال، وهذا فوز وتأييد للفكرة الوطنية وإخفاق لأنصار الاحتلال وصنائعه.

٢ – اهتمام الصحف العالمية بالمسألة المصرية

وثمة نتيجة ثانية، وهي اهتمام الصحف الأوروبية والإنجليزية بالمسألة المصرية فقد بدأت تكتب المقالات والرسائل والبحوث المستفيضة عن شئون مصر ومطالبها.

كان الرأي العام في أوروبا قبل أن يرفع مصطفى كامل صوت مصر يعتقد أن مصر من البلاد المتأخرة التي لا تفقه معنى الوطنية والاستقلال، وأنها لا تختلف عن بقية المستعمرات التي أعدت لأن تحكمها الدول الأوروبية، وكان الظن أن الاحتلال قد استقر في مصر، وأن نظام الحكم الذي وضعه اللورد كرومر قد نجح إيما نجاح ولكن حادثة دنشواي قد نبهت الأفكار إلى فساد هذه النظام وإلى أن مصر ساخطة عليه، وأنها تطالب بحريتها واستقلالها، فعظم بذلك شأن مصر في نظر العالم، وازداد المصري احترامًا في نظر الأوروبيين، لأن أوروبا لا تحترم إلا الشعوب التي تحرص على حريتها واستقلالها.

٣ – تغيير سياسة الاحتلال

وأدركت الحكومة البريطانية أن سياستها في مصر تحتاج إلى تبديل أو تعديل واعتزمت إنفاذ هذا التعديل، ولكنها أخذت الأمور بسنة التدريج، كما هي عادتها كلما أرادت تغيير سياستها، وقوام هذا التغيير أن بقاء اللورد كرومر في منصبه أصبح أمرًا غير مرغوب فيه، وأن الاعتماد على خضوع وزارة ومصطفى فهمي باشا للسيطرة الإنجليزية لا يفيد الاحتلال في كل الأحوال، وأنه لابد من إسناد بعض المناصب الرئيسية إلى المصريين وإطلاق يدهم في شئونها، فلعل ثورة الخواطر تهدأ، ويخف الضغط البريطاني على الأداة الحكومية، فيؤدي ذلك إلى تخفيف السخط على الاحتلال.

٤ – تأسيس الجامعة المصرية

نعتقد اعتقادا جازما أن تأسيس الجامعة المصرية كان إحدى نتائج حادثة دنشواي، فقد تنبهت الأفكار عقب الحادثة على وجوب المساهمة في كل ما ينهض بالأمة ويرقى بها على مصاف الأمم الراقية، لكي تتحرر من العبودية التي وصلت إليها، فظهر في أكتوبر سنة ١٩٠٦، أي عقب حادثة دنشواي بنحو ثلاثة أشهر، جماعة على رأسهم سعد زغلول وقاسم أمين، وكانا مستشارين بمحكمة الاستئناف، في تأسيس جامعة مصرية، فإذا لاحظت ما كتبه قاسم أمين عن شعوره نحو تنفيذ الحكم في قضية دنشواي (ص ٢١٢) أمكنك أن تدرك أن نفسه قد اتجهت حين عظم وقع الحادثة على المساهم في عام ينفع الأمة في جهادها فاختار العمل لإحياء مشروع الجامعة المصرية.

ويلزمنا تقريرًا للحقائق وإنصافا للعاملين أن نقول إن أول من دعا إلى هذا المشروع ومهد له الأفكار هو مصطفى كامل، وفقد اقترح في عدد ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٤ من اللواء إنشاء جامعة مصرية بأموال الأمة، قال في هذا الصدد ما يأتي:

" مما لا يرتاب فيه إنسان أن الأمة المصرية أدركت في هذا الزمان حقيقة المركز الذي يجب أن يكون لها بين الأمم، وأبلغ الأدلة على ذلك نهضتها في مسألة التعليم وقيام عظائمها وكبرائها وأغنيائها بفتح المدارس وتأسيس دور للعلم بأموالهم ومجهوداتهم، ولكن قد آن لهم أن يفكروا في الوقت الحاضر في عمل جديد، الأمة في اشد الحاجة إليه، ألا وهو إنشاء جامعة للأمة بأموال الأمة".

وأخذ يبين ضرورة إنفاذ هذا المشروع الجليل، ودعا المفكرين وأصحاب الرأي على موافاته بآرائهم فيه، وطرق الوصول إلى تحقيقه.

وفي يناير سنة ١٩٠٥ عاود الدعوة إلى المشروع [1]، واقترح أن تسمى الجامعة (كلية محمد علي) لمناسبة مرور مائة سنة ميلادية على ولاية محمد على عرش مصر (١٣ مايو سنة ١٨٠٥) وكتب عدة مقالات شرحًا وتأييدًا للمشروع، قال فريد بك في هذا الصدد في خطبته يوم ١٧ إبريل سنة ١٩٠٨: "تعلمون أن المرحوم مصطفى كامل باشا هو صاحب مشروع الجامعة المصرية وقال به من عهد أن شرع في الاحتفال بمرور مائة سنة على تولية محمد علي باشا على مصر".

وقد أيد الأمير (حيدر فاضل) دعوة مصطفى كامل، فكتب غير مرة سنة ١٩٠٥ في تحبيذ المشروع، واستنهض همم الأمراء والأغنياء إلى الاكتتاب له، وجمعت له فعلاً في سنة ١٩٠٥ الاكتتابات لهذا الغرض من بعض الأمراء والسراة بلغت نحو ثمانية آلاف جنيه، ثم وقف المشروع لعدم تعضيد الخديو إياه.

وفي سبتمبر سنة ١٩٠٦ حين دعا فريد بك إلى تأليف لجنة للاحتفال بعودة الفقيد إلى مصر عقب جهاده في حادثة دنشواي كتب إليه من باريس الخطاب السالف الذكر بتاريخ ٢٤ سبتمبر يعتذر فيه من عدم قبول هذا الاحتفال ويقترح فتح اكتتاب عام لتأسيس الجامعة المصرية.

تجددت الفكرة كما أسلفنا عقب حادثة دنشواي، وكان أول من تبرع للمشروع مصطفى بك كامل الغمراوي أحد سراة بني سويف، إذ تبرع من تلقاء نفسه بخمسائة جنيه ودعا سراة البلاد

---

(١) اللواء عدد ٨ يناير سنة ١٩٠٥.

وأعيانها على أن يجود كل منهم بمثل هذه المبلغ ثم تألفت لجنة تأسيس الجامعة واجتمعت لأول مرة بمنزل المغفور له سعد بك زغلول (وكان لا يزال مستشارًا بمحكمة الاستئناف) يوم الجمعة ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦، واختير سعد بك زغلول (باشا) وكيلا للرئيس، وقاسم بك أمين سكرتيرًا للجنة وتركت الرئاسة ليتولاها أحد الأمراء، ونشرت الدعوة إلى الاكتتاب وبدأت به فعلا في أول جلسة، وكان هذا الاجتماع نواة تنفيذ المشروع.

٥ – تعيين سعد زغلول باشا وزير للمعارف

مما لا شك فيه أن تعيين سعد بك زغلول وزيرًا للمعارف كانت من النتائج المباشرة لحداثة دنشواي، فقد أرادت الحكومة البريطانية تعديل سياستها في مصر، وكانت تعلم أن من أسباب سخط الأمة على هذه السياسة حصر السلطة في يد المعتمد البريطاني والمستشارين الإنجليز، فأرادت أن تستند بعض المناصب الكبيرة إلى الأكفاء من المصريين، وتترك لهم جانبًا من السلطة، لعلها بذلك تخفف من سخط الأمة على الاحتلال وتجتذب في الوقت نفسه إلى صفها بعض رجالات مصر، ومن المحقق أن الورد كرومر هو المقترح تعيين سعد زغلول بك وزيرًا للمعارف وهذه واقعة مسلم بها من الجميع، وقد صدر الأمر العالي بتعيينه في ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٦، فملابسات تعيينه تدل على أنه نتيجة من نتائج حادثة دنشواي لأن سعد بك زغلول كان مستشارًا بمحكمة الاستئناف منذ سنة ١٨٩٢، واللورد كرومر كان معتمدًا لانجلترا في مصر منذ سنة ١٨٨٣، ومع ذلك لم يفكر في إسناد الوزارة على سعد زغلول المستشار الذي كان منقطعًا على قضائه في محكمة الاستئناف، فالتفكير في تعيينه بعد وقوع حادثة دنشواي بنحو أربعة أشهر دليل على أنه أثر من آثارها، وهو جزء من التغيير الذي انتوت الحكومة البريطانية إدخاله فيس سياستها بمصر عقب الحادثة، ومن هنا يمكنك أن تدرك ما لمصطفى كامل من الفضل في هذا التعيين.

٦ – استقالة اللورد كرومر (أبريل سنة ١٩٠٧)

كان لحملات الفقيد على سياسة الاحتلال في حادثة دنشواي وفي شئون مصر عامة صدى كبير في الرأي العام الأوروبي والبريطاني، وألقت حادثة دنشواي على شخصية اللورد كرومر عبئًا كبيرًا من التبعات الجسام، لا من الوجهة السياسية فحسب، بل من الوجهة الإنسانية، فرأت الحكومة البريطاني إقصاءه عن منصبه إنقاذًا لسمعتها أمام العالم المتمدن، وتخفيفًا لهياج الشعور الوطني في مصر، وقد استقر رأي الوزارة البريطانية (وكان يرأسها وقتئذ السير هنري كامبل بانرمان زعيم الأحرار) على هذه النية عقب استفاضة الأنباء عن فظائع التنفيذ، ولكنها أرجأت تنفيذ نيتها حتى يعود اللورد كرومر إلى مصر استبقاء لكرامة رجالها وقد عاد إلى مصر

مزودًا بتعليمات جديدة تبعًا لتغيير سياسة الاحتلال كما أسلفنا، ثم قدم استقالته في إبريل سنة ١٩٠٧ عقب تقديمه آخر تقرير له عن شئون مصر سنة ١٩٠٦.

كان استعفاء اللورد كرومر انتصارًا للحركة الوطنية فقد تولى منصبه في مصر منذ سنة ١٨٨٣، وبقي فيه على سنة ١٩٠٧ أي أن ظل يشغل هذا المركز مدة أربع وعشرين سنة كان في خلالها الحاكم المطلق لمصر، فلاشك أن إقصاءه عن هذه السلطة بعد هذه المدة الطويلة هو اعتراف بقوة الحركة الوطنية. وكتب الفقيد في عدد ١٢ إبريل سنة ١٩٠٧ من اللواء تحت عنوان (استعفاء اللورد كرومر) مقالة افتتحها بقوله:

" ما حدثت حادثة دنشواي ودوّى دويها في العالم كله وقامت لها قيامة الأحرار في انجلترا وعرف المتمدنون في أنحاء الأرض مقدار بشاعتها وفظاعتها وشدة انفعال المصريين من الحكم والتنفيذ فيها حتى ذاع وشاع أن مدة إقامة اللورد كرومر في مصر محدودة وأنه لا يلبث أن يترك وظيفته لما أصاب سياسته من الخيبة والفشل".

وقال ذاكرًا خلاصة تاريخ اللورد كرومر في مصر:

" ماذا نذكر من سياسة اللورد كرومر وخطته في مصر؟ نذكر أنه الضارب لعرض الخديوية بيد من حديد، نذكر أنه الذي فتح السودان برجالنا وأموالنا ثم جردنا من كل حق وسلطة فيه، نذكر أنه الذي سلب الحكومة المصرية والوزارة الأهلية كل وجود ونفوذ وحياة، نذكر أنه الذي حرم الفقراء من التعليم في مدارس الحكومة، وحارب اللغة العربية، نذكر أنه الذي قرب الذين يضحون بأشرف العواطف لخدمة المطامع الذاتية، نذكر أنه الذي رمى المصريين بكل جهل وتقصير، وأعلن للملأ وجوب سيادة الإنجليزي على المصري ولو كان هذا رئيس ذاك، نذكر أنه الطاعن على الدين الإسلامي في تقريره الأخير ذلك الطعن الذي هاجت له عواطف المسيحيين مثل المسلمين، نذكر أنه الذي عمل بما في وسعه لمقاومة المطالب الوطنية، وإنكار كفاءة الأمة واستعدادها لنيل الحقوق النيابية، نذكر أنه الذي سعى لقتل العواطف الوطنية بالمال وظن أن الثروة وحدها كافية لإرضاء أمة وشراء ضمائر شعب، نذكر بنوع خاص أنه الذي أراد الانتقام من شعور الناشئة المصرية في حادثة إضراب الطلبة، فرقى دنلوب مستشارًا للمعارف، وأراد الانتقام من عواطف الأمة كلها، فكان ما كان في دنشواي مما يذكره الخاص و العام، نذكر أنه لم يكتف بذلك كله بل تعمد أمام هذه الأمة، وهي حزينة كئيبة على منكوبي دنشواي. مكافأة من سلكوا في هذه الحادثة المشئومة المسلك الذي يحبه جنابه وتنفر منه الأمة كلها".

وقد كان الفقيد منصفا في مقاله، إذ ذكر اللورد كرومر ماله بعد أن ذكر ما عليه، قال:

"هذا ما نذكره للورد كرومر ويذكره كافة المصريين، ولكننا نذكر له بكل إنصاف أنه لبث طول حياته مثالا للنزاهة، حتى يصبح أن نضرب به الأمثال في هذه الوجهة لكافة الحكام وذوي السلطة، ولو شاء جنابه لكان أغنى أغنياء الأرض بما في قبضته من جاه ونفوذ. ولكنه فضل الشرف الذاتي على المال، وخيرًا فعل".

ثم قال "ونذكر له أيضًا أنه عمل في مصر ليجعلها مستعمر إنجليزية لم يكن أسما ففعلا، فهو كان على خلاف تام مع أحرار الإنجليز الذين يرون في مصافاة المصريين نفعًا لانجرتا أكبر وأمسى من معاداتهم بسلب حقوقهم".

الاتحاد

وختم الفقيد مقالته بقوله:

" مهما كانت الخطة التي تنوي الدولة الإنجليزية إتباعها في مصر فإننا لا نرى لبلادنا سلامة ونجاحا إلا في اتفاق المصريين واتحادهم وتضامنهم في المطالبة بحقوقهم والمناداة بميولهم بكل همة وصراحة وبلا خوف وحياء، لأن الأمة لا تبلغ مأربها إلا إذا كانت قادرة على نيله، وليس في مظاهر القوة مظهر أرقى وأسمى من المجاهرة بالحق والدفاع عن مصالح الأوطان بكل قلم ولسان".

وخلف اللورد كرومر في منصبه السير إلدون جورست، وقد افتتح عهده بالنصح بالإفراج عن مسجوني دنشواي.